الطاهر بنجلّون

العقاب

سيرة روائية

المركز الثقافي العربي

كان العقابُ رهيباً.

انتظرتُ خمسين عاماً لأتمكّنَ من تأليف هذا الكتاب.

الطاهر بنجلّون

العقـاب

سيـرة روائيـة

ترجمة: مصطفى الورياغلي



المركز الثقافي العربي

العنوان الأصلي للكتاب:

La punition

الكتاب

العقاب

تأليف

الطاهر بنجلون

ترجمة

مصطفى الورياغلي

الطبعة

الأولى، 2018

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-895-4

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 - 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت - لبنان

ص.ب: 5158 - 113 الحمراء

شارع جاندارك - بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 - 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

في الطريق إلى الحاجب

16 يوليو 1966 من تلك الصباحات التي عَزَلَتْها أمي في ركن من ذاكرتها، لترويها لحفّار قبرها، كما تقول. صباحٌ معتمٌ ذو سماء بيضاء وقاسية.

تغيّبت الكلماتُ عن ذلك اليوم. لم تتبقَّ سوى النظرات الفارغة والأبصار المغضوضة. تنتزع أيدٍ متسخة من أُمٍّ ابنَها الذي لم يُكمل بعدُ عامَهُ العشرين. تنطلق الأوامرُ، وسباب من نوع «سنربيه ابن العاهرة هذا». يبصق محرك الجيب العسكرية دخاناً لا يُحتمل. لا ترى أمي سوى السواد وتجاهد من أجل ألا تنهار فوق الأرض. إنه العصر الذي يختفي فيه الشبّان، ويعيش الناس في الخوف، ويتحدثون همساً احترازاً من أن تُسجِّلَ الجدرانُ الجُمَلَ الملفوظة ضدّ النظام، ضدّ الملك ورجاله المقرّبين، عسكريين لا يتورعون عن أي شيء، ورجال شرطة بلباس مدني يتوارى عُنفُهُم خلف عبارات جوفاء.

قبل الانصراف، قال أحد العسكريَّين لأبي: «غداً يجب أن يَمْثُلَ ولدُك في معسكر الحاجب، أمرُ الجنرال. ها هي بطاقة القطار، في الدرجة الثالثة. من مصلحته ألا يتهرّب».

تنفثُ الجيب دفعةَ دخان أخيرةً وتمضي محدثة صريراً بإطاراتها. كنت أعلم أني في اللائحة. مرّوا أمس ببيت مُنصف الذي أخبرني أننا كنا معاقَبين. يبدو أن أحدهم قد أخبره، ربما والده الذي كان له ابن عم في قيادة الجيش. أبحث في خريطة قديمة للمغرب عن الحاجب. يقول لي أبي: «تقع قرب مكناس، قرية لا يوجد بها سوى عسكريين».

في صباح الغد، أجدني في القطار رفقة أخي الأكبر. أبى إلا أن يوصلني إلى هناك. لا نملك أي معلومة. استدعاء جاف فحسب.

جريمتي؟ المشاركة يوم 23 مارس 1965 في مظاهرة طلابية سلمية قُمِعت في الدّم. كنتُ رفقة صديق عندما شرع فجأة أفراد من فرقة «شبكوني» (Ça va cogner)، كما يُلقَّبون، في ضرب المتظاهرين بكل قُواهم، من دون أي سبب. استولى علينا الفزع، فأخذنا نجري طويلاً قبل أن نجد أخيراً ملجأ في مسجد. في الطريق، رأيتُ جُثَثاً فوق

الأرض مُمَرَّغةً في دمائها. فيما بعد شاهدتُ أمّهاتٍ يَهْرَعْنَ نحو المستشفيات بحثاً عن أبنائهنّ. شاهدتُ الفزع، والحقد. شاهدتُ خصوصاً وجهَ مَلَكِيَّةٍ أطلقَتْ يدَ عسكريين ليستردّوا النظام بكل الوسائل. في ذلك اليوم تمَّ الطلاقُ نهائياً بين الشعب وجيشه. كان الهمسُ في المدينة يذكرُ أن الجنرال أوفقير نفسَهُ أطلقَ النار على الحشود من هليكوبتر في الرباط والدار البيضاء.

في المساء ذاته، عقد الاتحاد الوطني لطلبة المغرب (أوطم) اجتماعاً سريّاً في مطابخ مطعم الحي الجامعي، ولسذاجتي توجهتُ إلى هناك. لم يكن الاجتماع قد اكتمل بعد حتى سمعنا صوت سيارات الجيب، لا بدَّ أن عميلاً قد أخبرهم. كان مسؤولو الاتحاد يشتبهون منذ مدة في وجود من يخبر الشرطة. شخص قصير، وجاف، ودميم، وذكيٌّ جدّاً على الخصوص، ولكنهم لم يتمكنوا من إثبات تعاونه مع العدوّ. دخل رجال الشرطة، اعتَقَلوا الأكْبَرينَ سنّاً وسجّلوا أسماء جميع الآخرين. خلتُ أني قد أفلتُّ...

تعود المقطورات إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية، مقاعد خشبية وسَيْر بسرعة الحلزون. تتوالى المشاهدُ ببطء غريب. بين الفينة والأخرى يتوقف القطار. ننتقلُ إلى

النوافذ ونستنشق هواء مُلَوَّثاً بدخان القاطرة. يصعد أناسٌ محمَّلين بالقفف، والأكياس، وبعضهم يحمل دِيَكَةً حيّة. أسعل، وأنظر إلى ناحية أخرى. أفكر في اجتماعاتنا في الشهور الأخيرة، عقيمة بلا جدوى. في تلك المرحلة من العمر كان من الطبيعي أن نرغب في تغيير العالم. لا نقترف أيَّ سُوءٍ، نتناقش لساعات، نمتحن ذواتنا أمام الوقائع. نريد أن نناضل ضدّ الظلم والقمع وانعدام الحرية. أي شيء أنبلُ من هذا؟ لا ينتمي أغلبنا إلى أي حزب. أحدُنا شيوعيٌّ، هذا صحيح، على الأقل ينسب نفسه إلى الشيوعية، لكننا لا نحاول أن نعرف ما الذي يعنيه ذلك حقيقةً بالنسبة إليه. يكره أميركا. أنا أهوى الجاز والسينما الأميركية. ومن ثمَّ لا أفهم موقفَهُ المتصلِّبَ. يَعتبر كلَّ ما يأتي من الولايات المتحدة مُضِرّاً، ويجب أن يُرفَض. لا يشرب كوكا-كولا مثلاً. تلك طريقته للتعبير عن معاداته لأميركا. أنا، خصوصاً في الصيف، أحب كثيراً شرب كوكا صغيرة. لكن ذاك لا يجعلني شريكاً في ما يقترفه الجنود الأميركيون من فظائع في الفيتنام.

ينطلق القطار من جديد على مهل. غفا شقيقي. تنبعث من البدويّ صاحِبِ الدِّيَكة رائحةٌ كريهة. تبدو لي قملة أو برغوث فوق طوق قميصه القديم المتسخ. يُخرج

غليوناً طويلاً (سبسي)، ويحشوه بالكيف ويشعله. يدخّن بهدوء من دون أن يتساءل إن كان الأمر يزعجنا. أشعر بصداع الشقيقة يزداد. كنت قد توقعتُ وصوله. أتناول حبة أسبرين من الحقيبة، فيمدُّ لي البدويُّ قنينة ماء، تمنّيتُ لو كان معي كأس. أشكره وأبلعُ القرص. أنهض وأخطو خطوات قليلة في الممرّ. أشاهد في البعيد راعياً يَقيلُ تحت شجرة. أغبِطُهُ. أقول لنفسي إنه لا يدرك حظَّهُ. ليس هناك من يعاقبه، أعلم أنه لم يقترف ذنباً لكني أنا أيضاً بريء وها أنذا داخلَ قطار التعاسة هذا متوجِّهاً إلى ثكنة حيث لا أملك أدنى فكرة عمّا ينتظرني. أرى بدويةً تعبُرُ. تُذكّرني بخطيبتي. أتألَّمُ. لم تأتِ زينة لتودِّعني قبل سفري. مع أنني هاتفتُها. أجابتني والدتُها بطريقة جافة. عندما أخبرتُ زينة بما كان يحدث لي، لم تقل شيئاً، بل تنهّدت كما لو كنتُ أُزعجها. «إلى اللقاء»، قالت لي ثم أَنْهَتِ المكالمة. أنا أحبها، أستعيد دائماً لقاءنا في المكتبة الفرنسية. يدانا امتدّتا إلى الكتاب نفسه، **الغريب** لكامو. قالت لي: «يجب أن أُنجز عرضاً حوله»، فأجبتُها بسرعة: «يمكنني أن أساعدك، قد درستُهُ من قبل». وهكذا التقينا مرات عديدة بعد الزوال في مقهى «بينو»، بشارع فاس. تحدّثنا طويلاً عن قصة جريمة قتلِ عربيٍّ بسبب الشمس أو الحزن. كانت تقول لي: «أمُّهُ

ماتت؛ وهو لا يعرف بالضبط متى حدث ذلك؟ إنه ابنٌ مُخْزٍ. . .»، أنا أيضاً لم أكن أفهم كيف يمكن لابنٍ أن يتردد حول يوم موت أمه. بعد تلك الاندهاشات نظر أحدنا إلى الآخر مثل غاري غرانت وإنغريد بيرغمان. كنت كثيراً ما أرافقها إلى غاية بيتها. ذات مساء، اختلستُ منها قُبلة، مستغلاً عطباً في الكهرباء. التصقت بي وكان ذلك بداية قصة حبٍّ اتّخذ كلُّ شيء فيها أبعاداً هائلة. كان علينا أن نتوارى لنتحابَّ. كانت تَصونُ عذريَّتَها وأنا كنتُ أكتفي بمداعبتها. كان الظلام شريكنا. كنا نجد في تلك العناقات المختلَسة إثارةً تبعث فينا الرعشات. كان حبُّنا، المسكون بالشك والحُمّى، يُسكرنا. يستحيل نسيان تلك اللحظات التي كانت تستمر بعد ذلك في أحلامنا. وفي الغد كنا نتحاكى ليلتَنا. كنا مجنونَين وسعيدَين. وها هو دَرَكُ جلالة الملك يستعدُّ لأن يجعل لكل ذلك نهايةً قاسيةً لا رادَّ لها.

يلجُ القطار محطة مكناس حوالي الساعة التاسعة عشرة. الحافلة الأخيرة التي تربط بين مكناس والحاجب قد رحلت منذ نصف ساعة. قضاء الليلة في هذه المدينة التي لا نعرفها لا يُبَشِّرُ بخير. يجد شقيقي فندقاً صغيراً رخيصاً. الشخص المكلَّف بالاستقبال أعور، لم يحلق

ذقنه منذ أيام؛ يبصق فوق الأرض، بشكل متكرّر لا إرادي، مُحْدِثاً صوتاً حادّاً. يستخلص منّا أجرته مقدَّماً ويمدُّ إلينا مفتاحاً غليظاً وهو يقول لنا: «ممنوع القحاب هنا». أخفض بصري حياءً من شقيقي الأكبر. حجرةٌ ذاتُ سريرَين. أغطية متسخة. بقعُ دمٍ هنا وهناك. ينظر بعضُنا إلى بعض من دون أن ننبس بكلمةٍ. لا خيار. عندما يكون المرءُ فقيراً ليس له أن يترفّع عن أغطية متسخة. يُخرِجُ شقيقي من حقيبته دجاجةً مشوية. كانت أمي قد احتاطت لكل طارئ. خبزة كبيرة، وجبنة البقرة الضاحكة وبرتقالتان. نأكل، مقتعدين الأرض، من دون تعليق. وعندما نريد غسل أيدينا، نكتشف ألا مغسل ولا مرحاض في الحجرة. الكل موجود في الصحن، وفي حال من القذارة تثير الاشمئزاز. مثل تائهَين، تتلاقى نظراتنا ثم نُطرِقُ حائرين. نضطجع بكامل لباسنا. السرير مثقوب الوسط. يكاد يكون أرجوحة. لا ينقص سوى الشجرة، والربيع، والكوكتيل، والزيتونة الخضراء. لا أنام. يستفحل صداع الشقيقة. أجلس فوق حافة الفراش. شيء ما يقرصني في قفاي. أحكُّ وأقبض على بقَّة. أسحقها بين أصابعي. الرائحة كريهة. هل سأُفلح في نسيان رائحة الدم والتبن العفن؟ أفاق شقيقي بسبب الضوضاء وأزعجته الرائحة. أخرجُ لأغسل يدَي في آخر الممرّ. صبيبُ الماء

ضعيف. المغسل مُكسَّرٌ. تسللت القذارةُ بين الشقوق. أعود إلى الحجرة وأجلس من جديد فوق حافة الفراش. الضوء، شديد الخفوت، يسمح لي مع ذلك أن أباغت بقّتين فوق المخدّة. أهزُّها. تسقطان فأسحقهما بحذائي. يشرع شقيقي بدوره في قنص الحيوانات الصغيرة المُنتنة. نمزح لأول مرة في اليوم بينما نشعر بالحاجة إلى البكاء على مصيرنا، لأن والديَّ وقعا مريضَين، منذ أن جلب أولئك الدركُ الملاعينُ الاستدعاء إلى البيت.

ذات يوم، يأتي رجال ويطرقون بابك باسم الحكومة، لا نجرؤ على التحقُّق من هويّاتهم، يزعمون أنها مجرد مراقبة روتينية. يقولون: «عندنا نقاط معدودة فقط نستوضحها مع زوجك، سيعود بعد ساعة واحدة أو اثنتين، لا ترتاعي». ثم تمرُّ الأيام ولا يعود الزوج. سيادة الاستبداد والظلم جعلت الحياةَ خوفاً. يحلم أبي بنظام شبيه بما لدى دول الشمال، يُحدِّثنا كثيراً عن السويد، والدنمارك، والديمقراطية. يحب أميركا أيضاً حيث مقتل الرؤساء أنفسهم لا يؤدي إلى الانتقام من الشعب كله. «مات جون كنيدي؛ قُتِلَ قاتلُهُ. انتهى الأمر!» قال لي ذات يوم.

في منتصف الليل، أشعر بالتعب يستولي علي. رأسي

ساخن، أتفصّد عرقاً. أُشرِعُ النافذة؛ يتدفّق البعوض بالعشرات. أعيد إقفالها. أحاول أن أتخيّل روضاً أخضر وأنا جالس فوق مقعد أتجاذب أطراف الحديث مع أصدقاء؛ أشاهد في البعيد فتاة ترتدي فستاناً خفيفاً تقترب؛ إنه حلم. أنتفض لقرصة بقّ جديدة. أقرِّر أن أنهض. أبحث في حقيبتي وآخذ منها قطع بسكويت أعدّتها أمي. آكل منها اثنتين. يسقط فتات فوق الأرض. يهرع النملُ مستنفَراً. أتسلى بمراقبته. يؤنسني. تمكّن شقيقي من النوم، أخذ يشخر. أُصفِّرُ ولكن ذلك لا ينفع. يُغيِّرُ وضعه ويستأنف الشخير. أتأمله بإمعان وأكتشف بدايةَ صلعٍ. يكبرني بعامَين. إنسان كريمٌ وبشوشٌ. تزوج مبكراً بابنةِ عم. يحب السياسة ولكنه، مثل أبي، يَحْذَرُ عندما يخوض في المواضيع الحسّاسة. يتكلم بالمجاز، ولا يتلفظ بأي اسم، بيد أن تعابير وجهه تنطق بكل شيء. هو من بيَّنَ لوالديَّ أن ذلك الاستدعاء إنما هو عقابٌ. أجهشت أمي بالبكاء. «ما الذي اقترفه ابني ليُعاقَب؟ لِمَ يُسجنُ في ثكنة؟ لأي سبب يحطمون شبابه ويسرقون منه صحّته ومعها صحتي؟». أجابها أبي: «تعرفين لماذا، اشتغل بالسياسة!». عقّبت أمي بغضب: «ما هذه «السياسة»؟ هل هي جريمة؟». انطلق حينئذ أبي أمامي في تفسير نصّيٍّ: «السياسة في اللغة العربية من فعل «ساسَ،

يسوسُ» أي وجَّهَ، قاد حيواناً، فرساً أو حماراً؛ تجب معرفة قيادة الحيوان ليصل إلى حيث نريده أن يصل. ممارسة السياسة تعني تعلُّم قيادة الناس؛ أراد ولدُنا أن يتعلم هذه الحرفة، لكنه فشل، لهذا السبب يُعاقَب، في بلد آخر كان سَيُهَنَّأُ، عندنا يُثبطُ تماماً ويجعلونه يندم على ضلاله في ميدان موقوفٍ على أولئك الذين يمارسون السلطة ولا يطيقون من يعترض عليهم. الأمور واضحة. ابننا أخطأ، ضلَّ في ميدان ليس لنا».

كان، في الحقيقة، يحاول أن يُقنع نفسه بما يقول. يكره أبي الظلم. استنكره طوال حياته، وقاومه ما استطاع. يعلم أن النضال ضدّ المظالم في هذا البلد يمكن أن يكون وخيمَ العاقبة. صَدَمَهُ اعتقالُ ثم سجن حفيده، الذي تجرّأَ على أن يقول على الملأ: «إن الفساد في هذا البلد يبدأ من الأعلى وينزل إلى غاية الحمّال». ذهب لرؤيته في السجن، وبعد ثلاثة أيام زاره رجلان وقصفاهُ بالأسئلة. وفي لحظة قال له أحدُهما: «عندك ولدان، ابنان، أليس كذلك؟». حينئذ يُدرِكُ أبي في الحال أن عليه أن يَرْضَخَ. مرضَ بسبب ذلك. في المساء أصيب بالحمّى ونام من دون أن يتفوّه بكلمة واحدة. في الغد جَمَعَنا أخي وأنا، وقال لنا: «خذا حذركما، لا سياسة؛ هنا لسنا في الدنمارك التي هي أيضاً ملكية، عندنا الشرطة هي التي تحكم؛ لذلك فكِّرا في

صحّتي وخصوصاً في صحّة والدتكما؛ يمكن للسُّكَّري أن يستفحل لديها؛ لا تجمُّعات، لا سياسة. . .».

أجبنا أن السلطة في جميع الأحوال يمكن أن تسيء إلينا ولو لم نشتغل بالسياسة. نعيش داخل نظام يخضع فيه كل شيء للمراقبة. الخوف والشكّ حاضران. ابن عمٍّ لأبي، وكان له معارف في المخابرات، نبّهَهُ إلى أني شوهِدتُ أتناول القهوة مع أحد مسيِّري الحركة الطلابية بالرباط. تناوُلُ قهوةٍ! جريمة وقع التبليغُ عنها وتسجيلها. أما بالنسبة إلي، فلم أكن أعي في تلك الفترة مدى خطورة الوضع الأمني في البلد. كنت أقوم على النادي السينمائي بطنجة وأنا أشعر بحصانة تامة. لم أكن أجد في ذلك أثراً للسياسة. لكن، بعد أن قدّمتُ فيلم **المدرّعة بوتمكين** لإيزنستاين، تلقّيتُ في اليوم الموالي ذاته استدعاء من الشرطة. عمري خمسة عشر عاماً وأرتعد لأنها المرة الأولى التي أطأ فيها مفوّضية للشرطة. قال لي الشخص الذي ربما كان ضابطاً: «أتعلمُ أنَّ هذا الفيلم هو تحريض على التمرّد؟».

أُصابُ بالذهول. ثم أندفعُ:

«لا أبداً، سيدي. يَعرضُ هذا الفيلم لحدثٍ تاريخي لا علاقة له بواقعنا، إنه فن. إيزنستاين سينمائيٌّ كبير، أتعلم.

- لا تَحْكِ لي تُرّهات، أعرفُ إيزنستاين. كنتُ من قبل أريد أن أشتغل في الإخراج؛ حتى أني كنتُ قد تَقدَّمتُ للتسجيل في معهد الدراسات العليا السينمائية بباريس، غير أن موت أبي في حادث أرغمني على أن أوقف دراستي، وبما أن الشرطة كانت تُجَنِّدُ، قبلتُ. حسن، حذار؛ من حسن حظك أنك وقعتَ بين يدي عاشق للسينما. على ذِكْرِ ذلك، ما هو الفيلم المُقبل في النادي السينمائي؟

- النَّبْعُ لإنغمار بيرغمان.

- اختيار موفَّق جدّاً. على الأقل في هذا الفيلم لا وجود للسياسة!».

نحو الساعة الخامسة أقع من النوم. لم أعد أحسُّ بالبق والبعوض. اختفى النمل. أنام. لا حلم ولا كابوس. في الثامنة، يوقظني شقيقي. علينا أن ننصرف. نتناول فطورنا في المقهى القريب. قهوة رديئة، لكنْ شايٌ بالنعناع ممتاز، وسفنج؛ يقول لي شقيقي: «انتبه، هذا زيت قديم قد يعود إلى العام الماضي!» هذا أقل خطورة من البقّ. يذكّرني السفنج بطفولتي بفاس في المدينة القديمة. مرة كل أسبوع، في يوم الحمّام، في طريق العودة، كان أبي يشتري لنا منه لفطورنا. نغمسه في وعاء

العسل. كانت لذة لا تُنسى. كان في الوعاء فتات ونحل ميت. ألهو رفقة شقيقي بتطهير الوعاء. نلحس أصابعنا ضاحكَين.

يمدُّ متسوِّلٌ يده، فأعطيه سفنجاتي. يلتهمها، يصل آخر، أعطيه كأس الشاي، يقول لي إنه يُفضِّلُ فنجان قهوة. يحوم الذباب والنحل حول رأسينا. مكناس تستيقظ. يمرُّ بائعُ نعناع صائحاً «طْري وخْرْشْ»؛ نعناع مولاي إدريس زرهون، وليّ وليلي، في ضواحي مكناس. بعد هذه الليلة الفظيعة، أنا مستعد لأواجه كل أمر.

نبحث عن سيارة أجرة للتوجه إلى الحاجب، الواقعة على بعد نصف ساعة. أناس ينتظرون، متسوّلون يحومون، طفلٌ حافي القدمين يلتقط عقب سيجارة من الأرض، فيطارده فتى أكبر منه. يَضِلُّ سائحون طريقَهم، يُضايقهم مرشدون مزوَّرون. يطردهم شرطيٌّ وهو يقول لهم: «عيب عليكم! تُقدِّمون صورة سيئة عن بلدنا!» يُنَبِّهُهُ أحدُهم إلى أن صورة البلد شديدة القبح سواء شوهِدَ من الداخل أو من الخارج، ثم يُطلق ساقيه للريح. فوراً يهدّده الشرطيُّ صائحاً: «أعرفُك، أعرف أين تسكن، ستدفع الثمن غالياً...» يشرع في الزعيق بالشعار الوطني: «**الله، الوطن، الملك**».

يضحك الناس، فلا يستمر الشرطي في الاعتداد بنفسه.

تصل سيارة أجرة. يهرع بعض الناس. يطالب الشرطيُّ بالنظام ثم يتوجّه بالكلام إلى شقيقي: «هيّا اركبا، لستما من هنا، أليس كذلك؟».

وها نحن مكدّسان فوق المقعد الأمامي. البلاستيك ممزَّق، يظهر تحته إسفنج يصعب تحديد لونه الأصلي. تفوح من السائق رائحة الزبدة الفاسدة، انتهى للتوِّ من تناول فطوره. يشعل سيجارة سمراء ذات رائحة كريهة جدّاً. في الخلف أربعة أشخاص، شيخٌ بجلباب كستنائي، بدويّةٌ تلتحف حايكاً أبيض يرافقها ابنُها وجنديٌّ في رخصة. يقول السائق: «يجب أن تدفعوا». يؤدي كل واحد ثمن الرحلة. في الطريق، يدور النقاش حول فريق كرة القدم بالمنطقة. يجرؤ شقيقي، المزداد في فاس، على الدفاع عن فريق المغرب الفاسي. يُحرِجُ كلامُهُ مَنْ في السيارة. لا بدَّ أن الركّاب يتساءلون إن لم يكن أحمق ليمتدح العدوَّ الحميم لفريق مكناس. يُغيِّرُ السائق الموضوع بالحديث عن ثمن الطماطم. يهدئ ذلك الجميع. يطلب منه الجنديُّ أن يُسرع قليلاً: «ستكون لي مشاكل مع عقّا». يبدو أنه شخص مهمٌّ. يقول له السائق: «يا للمسكين!». يومئ الشيخُ الجالس في الخلف برأسه

موافقاً: «عقّا شديدُ القسوة؛ يخيف الجميع، حتى أولئك الذين لم يلتقوا به أبداً».

يُؤَمِّنُ السائقُ على كلامه بحركة من رأسه.

كانت الحاجب في البداية ثكنة. استقصى شقيقي معلومات حول تاريخها: كان السلطان مولاي الحسن قد أقام في هذه القرية قصبةً لكي يدفع القوات المتمردة من قبيلة بني مطير الأمازيغية. استولى الجيش على المكان وحوَّلَهُ إلى إحدى الحاميات العسكرية الرئيسة في المملكة. كانت فترة عصيبة، فترة ما يُسمّى **بالسّيبة**، وهو ما يعني في الوقت عينه تمرّداً، ورعباً، وفوضى، واضطراباً. يقول لي شقيقي بالفرنسية: «انظر كم هي ثريّة اللغة العربية! كلمة **السّيبا** تحيل إلى وقائع كثيرة». يُفهِمُهُ السائقُ أن عليه أن يتحدث باللغة العربية. يعتذر شقيقي ويتوقف عن الكلام.

يتركنا السائق على أمتار قليلة من الشاحنات العسكرية. يرمقني بنظرة تبدو لي ناطقة بالشفقة. يقول وهو يرحل: «الله يحفظك!». يأخذ الجنديُّ في الجري. نراه يلقي التحية على ضابط ثم يختفي.

قبل التوجه نحو باب المعسكر، يحضنني شقيقي بين ذراعيه وأشعر أنه يبكي. يهمس لي: «أخي، سأتركك بين

يدي هؤلاء الأجلاف ولا أملك حتى الحق في معرفة سبب احتجازك في هذا المكان ولا مدته. كُن شجاعاً وإن استطعت أن توافينا برسائل، فافعلْ. اكتب أشياء عادية، وسنقرأ بين السطور».

يقترح عليّ عبارتين: «الأحوال جيدة» لأقول الأحوال سيئة. «الأحوال جيدة جداً» لأقول «الأحوال سيئة جداً». «الطعام جيد مثل طعام أمي» لأقول إن الوضع من هذه الجهة أيضاً لا يقل سوءاً. وأخيراً، في حال وقوع مأساة، يجب أن أقول «حلَّ الربيع بيننا». أطمئنُهُ ثم أشكره لمرافقتي إلى غاية الباب.

لحظات أخيرة من الحرية

منتصف النهار. الشمس حارقة. تشارك في ما أعيشه من مأساة. شقيقي غير مطمئن، يتطلّع حواليه وأرى الحزن في عينَيه. لا بدَّ أنه يفكر مرة أخرى في المختفين. منذ شهور قليلة، مثلاً، خرج جارُنا للحديث إلى رجلَين طرقا بابه، انصرف معهما ولم نره بعد ذلك. لجأت زوجتُه وأولادُه إلى أبي ليساعدهم في تحرير إعلانات البحث التي نشروها بعد ذلك في الجرائد. يُختطَفُ أُناسٌ من لدن مجهولين، تُحقِّقُ الشرطةُ لكنها لا تعثر عليهم أبداً. يُقال إنها يدُ الجنرال أوفقير المُظلِمَة؛ يُضيف بعضُهم: «القصر لا دخل له». في الحقيقة، يُطلِقُ الملكُ يدَ خادمه المطيع ليفرض النظام في البلد. كلُّ الذين يُرتابُ في تآمرهم ضدّ الملك، أو في كونهم على وشك التآمر، يُصفّون بطريقة نهائية ومستبدّة من لدن رجال الظل، نوع من الشرطة السرية المسؤولة أمام الجنرال فحسب. يُقالُ إنه يملك

القدرة على تخمين أفكار الآخرين. كثيراً ما يعتقل أشخاصاً لم يقترفوا أيَّ ذنب. تَلقّى تكوينه على يد الفرنسيين في فترة حرب الهند الصينية. لا ضمير، لا تردّد، الطريقة القوية العنيفة. لقّنه أخصائيون فرنسيون تقنيات التعذيب الأكثر خُبثاً. يبدو أنه فخور بذلك. الغاية تبرر الوسائل. النظام والانضباط قبل كل شيء. الوجه أسْفَعُ، النظرة عميقة وسحيقة، الجلد مثل فوهة بركان خامد. يُحكى أن بنبركة مات خلال حصة تعذيب، استسلم القلب. رفض أن يجيب عن أسئلة رجال شرطة متخصصين في هذا النوع من الاستنطاق. لا كلمات، لا أسئلة، ولكن صفعتان أسقطتا ضرساً من فمه. يقالُ إنه رفع المهدي من كرسيِّه ورجّهُ بعنف إلى درجة أنه لم يستطع أن يتنفس تحت ضغط القبضة ففقد الوعي وتوقف قلبه. نادى أوفقير على فريقه ووجّه إليهم الأمر الآتي: «هيِّئوا المغطس». يبدو أنه أذاب داخله الجثةَ في حمض السيتريك. لم يبقَ أيُّ أثر لزعيم المعارضة المغربية. لم يُعثَر أبداً على جثة المهدي بنبركة. تبدو أطروحة حمض السيتريك معقولة. قضيتُ ليالي أفكر في ذلك الرجل الذي لم ألقه أبداً. كنتُ قد تماهيتُ مع أحد أبنائه الذي قد يكون من عمري نفسه وكنت أتساءل كيف عاش تلك المأساة التي زعزعت النظام. كل الذين تورّطوا في تلك القضية وقعت تصفيتُهم.

واحدٌ فقط نجا من الموت. كان الأمن الفرنسي المغربي قد تبنّى أساليب المافيا. في تلك الفترة، استمرت شُرطتا البلدين في التعاون، على الرغم من أن الجنرال ديغول قد أفزعه ما حصل. لم يندهش أبي لذلك الاختفاء. أذكُرُني أسمعه يقول بصوت منخفض وبعد أن أقفل مصاريع النوافذ: «ما كان الملك ليتحمّل أن يعارضه أستاذُه السابق في الرياضيات؛ من الطبيعي أن يكون قد دَبَّرَ اختفاءه؛ طيب، لا تُردِّدوا بتاتاً ما قلتُهُ الآن؛ ولا كلمة!». ما كان يضايق فيه هو أنه كان يجرؤ على قول أشياء معترفاً في الوقت نفسه أنه خائف. أبي خائف. ليس الوحيد. نقل إليّ ذلك الخوفَ، شعور أخجلُ منه. من جهة أخرى، نصحه ابنُ عمّه أن ينتبه كثيراً إلى ما يقوله على الملأ وأخبره أن الشرطة ترسل زبائن مُزوَّرين إلى المتاجر ليستدرجوا التجّار إلى الكلام. ومن ثمّ لا يخوض أبي مع زبائنه في أي موضوع ذي طابع سياسي. ذات مرة، مدَّ إليه أحدُهم علبةً: «يجب أن نُساهم من أجل فلسطين». أجابه أبي: «من يضمن لي أن هذا المال سيصل إلى الفلسطينيين؟» انصرف الشخص من دون أن يردّ.

كلما أشارت الصحافة إلى المهدي بنبركة، كرّر أبي: «لا تُتعبوا أنفسكم. لن تُعرف أبداً الحقيقةُ حول هذا الاختفاء. أبداً».

يحضنني شقيقي مرة أخرى بين ذراعيه، يقول لي: «ليحفظكَ رضا الوالدين»، ويضيف: «لكن الله هو خير الحافظين». يحضنني بقوة كما لو أننا لن يرى بعضُنا بعضاً بعد ذلك. بعد هذه الكلمات، يتركني بين يدَي شخص ضخم، غليظ، ثقيل، طويل، حليق الرأس. يظهر مهذباً أمام أخي، يسأله عن أخباره كما لو أنهما يعرف بعضُهما بعضاً، يرمقني بنظرة تطفح بالعطف ويُطَمئِنُهُ: «اذهب بسلام، أخوك الأصغر بين أيدٍ أمينة»، ثم ما أن ينصرف حتى يوجّه لي ضربة في الظهر أوقعتني أرضاً. أنهضُ وأجدني بين جنديَّين يجذباني ويُلقيان بي داخل حجرة معتمة ومستديرة ذات كوّة في الأعلى إلى الجانب. أقف إلى جدار خشن. أنظرُ إلى السقف أو بالأحرى أتفحّصه ويبدو لي رؤية خطاطيف من حديد. أنا على يقين أن المساجين يُشنقون هنا أو يُعذَّبون. لا أدري ما سيفعلونه بي. أشعر بالجوع. احتفظوا بحقيبتي. الجو حار، لكنني في الظل على الأقل. هذه الحجرة المبنيّة بالطّوب تُدعى «طاطا»، نوع من السجن المؤقت. الباب مقفل من الخارج. الهرب مستحيل. أختنق، تسودُّ أفكاري أكثر فأكثر. في الواقع، لا يتعلق الأمر حقّاً بأفكار، ولكن بإحساس غريب أن كل شيء قد بُعثِر، وأن الأشياء لم تعد في أماكنها، وأن كراسي الصالة مُثبَّتَة في السقف، وأن

مقاعد الحلّاق تحتلُّ مكان المرايا، وأن الليل أُدرِجَ في النهار، وأن الساعات لم تعد لها عقارب؛ الزمن لم يعد موجوداً، اختطفتْهُ عصابة مساجين فارّين، الجدران تتحرك، تنزلق على سككٍ تبعث بها نحو جدران أخرى مُخزَّنة في حظيرة كبرى حيث يُقلَّصُ الناسُ مثلما كانت تُقلَّصُ الجماجم في إحدى تلك القبائل البعيدة، إنهم في حجم الفئران، أجل، تحولت الكائنات الإنسانية إلى فئران ويجدون هذا طبيعياً. أدور حول نفسي في هذه الزنزانة كما لو أني أبحث عن يد آدمية، عن وجه شقيقي، كما لو أني أتراجع كي لا أتحول إلى فأر، كنت دائماً أمقت تلك الحيوانات، في السينما أُغمض عينيّ عندما تظهر، ما يُفصح عن مقدار خوفي المرضي من الفئران، والخِلدان، والجرذان. أضع يديَّ فوق الجدار، أُطمئنُ نفسي لثوانٍ: أنا لستُ في كابوس، بل محبوس في زنزانة من نوع ما؛ لا وجود لا لفئران ولا لأي شيء يتحرك؛ الجدران صلبة وأنا صلبٌ، يعني تقريباً، على كل حال يجب أن أصير قوياً وألا أسمح للوضع أن يسحقني.

في الليل المتأخر، يأتيني الطعام. أعتقد أني سأتذكر طوال حياتي رائحة ذلك المرق الخانقة والثقيلة: شحم الجمل. لا وجود للحم، قطعُ خضراواتٍ وخبزٌ يابسٌ يُبْسَ الحجر. كأن الطحين خُلِطَ بالطباشير. أفضِّلُ ألا

آكل شيئاً. أشرب ماء في كأس من البلاستيك. أتكوَّمُ وأحاول أن أنام. أسمع ضجيجاً. أشمُّ دخان سجائر رخيصة، سأعرف فيما بعد أن الجنود يسمّونها «ترُوب[1]». الغريب أني لم أعد قلقاً. أنتظر ما سيأتي، ويداي تضغطان على جبهتي لتهدئة صداع الرأس. أستند إلى الحائط، فيكدمُ حجرٌ ظهري. لا أحاول تغيير وضعي. يشغلني هذا الألم عن ألم الشقيقة. صداع الرأس، وُلدتُ به؛ لا أتذكر أول يوم أحسستُ فيه بالصداع؛ هو عاهة. أتألم وعليَّ أن أعتاد هذا الألم. أحياناً تكون إبرة تنبش رأسي، أحياناً أخرى تكون مطرقة هزّازة تنقب فيه ثقوباً.

أنا وحيد ولا أحد يزورني. ربما نسوني؟ تشتغل مخيّلتي أسرع من تفكيري. أراني في وضعيات معقدة لا خلاص منها، مثل أن أعدو في فضاء أبيض بلا نهاية. يُعيدني الصداع إلى الواقع. أنهض وأُكرّرُ سلسلةً من عشر خطوات، أدور في مكاني، وأقول لنفسي هي بداية الجنون، أفكر في فيلم بالأسود والأبيض، **تلة الرجال الضائعين**. أراني بينهم، ظمآن، جائعاً، مُحاطاً بالألغام، أتقدّم، خفيف الوطء، خوفاً من أن تنفجر فيّ إحداها.

(1) ينطقها الجنود بالفرنسية Troupe، وتعني القُوّات أو جماعة من الجنود. (المترجم)

الجوع. أتناول قطعة خبز يابس. أغمسه في المرق الأصفر وأبلعه وأنا أسدُّ أنفي. ألتقط نصفَ حبّة بطاطس وآكلها مع الماء. أكاد أختنق. أسعل. في الليل المتأخر، يفتح جنديٌّ الباب، يندفع نحوي، يجذبني من ذراعي ويوقفني أمام العملاق الذي استقبلني من قبل.

عَقّا

يقول لي: «اسمي عَقّا؛ أنا من يحكم هنا، لاجودانْ شيفْ عَقّا، لا تنسَ هذا الاسم، يرنُّ مثل الموت. سننتزع منك كلَّ ما هو مدنيّ. اخلعْ ملابس المدينة هذه. انتهى كلُّ هذا. رجل، هنا يجب أن تكون رجلاً. لا بهرجة بالشَّعر، والتلميع، والعطر. أسرعْ. هيّا في ساعْ!».

بينما أخلع ملابسي، يجذبني من شعري. شعر فاحم كنتُ شديد الاعتزاز به. إنه زمن الشعر الطويل، والتويست، والرُّوكْ. يقول للجندي:

«لا تُبقِ له شعرة واحدة. يجب أن يعرف أن العقاب يبدأ من الشعر.

- أمركَ، سيدي الضابط!»

الجندي يرتعد. وأنا أتساءل أسأرتعد بدوري أم سيُغمى عليَّ، سأضحك أم سأقاوم، سأصيح وأصرخ أم سأصمتُ وأتركهم يجزّون رأسي مثل خروف.

ينصرف عَقًّا. أرتدي سترةً كستنائية اللون ذات كمّين قصيرين وسروالاً طويلاً جداً. سُلِّم لي صندلان أكبر من قدميّ. أحاول أن أمشي، فينفلتان. يمسك بي الجنديُّ الأصغرُ مني بيد حازمة ويُجلسني فوق كرسيٍّ أعرج قائلاً: «سننظر فيما بعد في أمر حجم الملابس». لم يعد يرتعد وأشعر بإحساس التفوق الذي تمنحه السلطةُ يتخلَّقُ بداخله. يُخرج مقصّاً ويشرع في قصِّ شعري. تتهاوى الخصلاتُ فوق الأرض، فوق ركبتَيّ. خصلاتٌ كثيرة. أبكي في صمت. أنظر إلى ركام الشعر وأنتظر ما سيحدث. يرشُّ الجنديُّ رأسي بالماء، يأخذ موسى الحلاقة، يضع فيها شفرة ويشرع في حلق جمجمتي. يؤلمني. تسيل قطرة دمٍ فوق خدّي. لا أقول شيئاً. لا بدَّ أن الشفرة قد استُعمِلتْ مرّاتٍ كثيرة. يُطمئنُني قائلاً إني عاشِرُ مَنْ حلق لهم هذا المساء. يتأنّى في عمله، يُمرِّرُ ويعيد تمريرَ الشّفرة التي تجرحني أحياناً. لا أتحرّكُ. أشمُّ رائحة العرق القوية التي تصدر عنه. كلُّ ما فيه يفوح رائحة كريهة. عندما ينحني نحوي، يكتسحني البَخَرُ من فمه ويصيبني بالدُّوار. أجرؤ على السؤال عن وجود حمّاماتٍ في المعسكر. يجيبني أنه يُفضِّلُ الذهاب إلى الحمّام البلدي مرة في الأسبوع.

بعد نصف ساعة، ينتهي العذاب. تُشعرني رائحةُ

العرق والملابس المتسخة بالغثيان. أودُّ أن أتقيّأ، على الرغم من أن بطني يكاد يكون فارغاً. لا أجرؤ على أن أتحسَّسَ جمجمتي. أظلُّ جالساً، مُطرق الرأس. يعود الجنديُّ ويقول لي إني سأنام الليلةَ في الـ«طاطا» في انتظار تعييني. يمكن أن يكون من سنّي، بدويٌّ ربّما التحق بالجيش اضطراراً. أسأله عن اسمه:

«جندي الدرجة الثانية، القطاع الثالث».

يجمع أدواته، يبصق على الأرض وينصرف.

يتكلم هذا الجندي، الذي ألقِّبه «الحجّام»، العربيةَ بصعوبة. لا بدَّ أنه أمازيغي. يرجع، يبصق من جديد فوق الأرض ويقول لي إنه فقدَ عَقِبَ سيجارته التي اضطر إلى إطفائها عند اقتراب عَقًّا. يبحث في كل مكان، لكن لا أثر لعقبه. أودُّ لو أهديه علبة سجائر أميركية كاملة لكنني لا أدخن، وفي كل الأحوال ليس هذا أوان أن أشحذ بعض الإحسان. ينصرف من جديد وهو يسبُّ أبناء المدن ويصفق الباب خلفه. ما الذي سأفعله الآن حيال وضعيتي الجديدة؟ الرِّضا بها. صعبٌ. في العشرين، لا نرضى بالأمور، بل ندحضها. أفكر مرة أخرى في أول اجتماع سياسيٍّ حضرتُهُ. حدث ذلك في عام البكالوريا. كنت أكتشف عالماً عرفته بعض الشيء عبر قراءاتي وأفلام معيّنة. كان الأمر مُمِلاً، شديد الملل. كنت أشعر بالرغبة

في النهوض والانصراف. لم أجد الشجاعة. كان لنظرات رفاقي الوزن الراجح. أن أُنعَتَ بالجبان أو الخائن. لا، أبداً. غير أن شخصاً اسمه فوزي لم يتردد. قام وغادر القاعة قائلاً: «حظ سعيد، هذا أمر لا يخصّني». يجب أن أقول إنه كان مريضاً ومجبراً أن يتناول دواء كلَّ أربع ساعات. كان يملك عذراً، ولا عذر لي. كان في إمكاني أن أعلن «أنا عاشق، وسأذهبُ للقاء حبيبتي»، عندها كانوا سيطلقون عليّ الرصاص رمزيّاً. ذاك ما كان عليَّ فعلُه. غير أن نقص شجاعتي ثم شكوكي لم يعيناني في تلك القضية. كان تغيير العالم، في حيّزنا الصغير، أمراً أساساً بالنسبة إليّ، أنا الذي قرأتُ رامبو وبعضاً من أقوال كارل ماركس. تجاوزتُ مخاوفي وحضرتُ الاجتماع الذي استمرَّ لساعات. مجرد كلمات، وجُمل جميلة، ووعود، ثم لا شيء. كان هناك أيضاً شخص حضر من الرباط يكبرنا بثلاثة أو أربعة أعوام. كان مكلَّفاً بتأسيس مكتب طنجة. كان سياسياً قحّاً. افتتحنا الاجتماع بدقيقة صمت في ذكرى المهدي بنبركة الذي كان صديقاً له. كان يُتقن الكلام، والبرهان، والإقناع، غير أنني عندما انصرف وجدتني عاجزاً عن تلخيص ما قاله. كان قصيراً وحاداً، ذاك الصنف من الناس الذي يَهبُ حياته لقضية لأنه لا يصلح لشيء بعيداً عنها. أدركتُ ذلك في وقتٍ

جدّ متأخر. هو لن يُعاقَب. لن يكون من ضمن 94 من «معاقَبي» المملكة. كان يمارس السياسة رسمياً، ويملك حزباً خلفه، وفي الغالب دعاماتٍ نافذة. نحن، كنّا القطيع.

يمرُّ عَقًّا من جديد. أراه من أسفل، هائلاً، مثل تلك الوحوش التي نصادفها في أفلام الرعب. يحدجني، ويقول لي: «أنت الآن بصدد مغادرة حالتك المدنية، وغداً ستكون جنديّاً».

لا رغبة لدي في أن أصبح جنديّاً. لا أقول شيئاً. أُدرك حدساً أن لا مجال للنقاش مع هذا الصنف من المتوحّشين.

«سنصنع منك رجلاً! هنا ممنوع «البوليتيك» (يقول بفرنسية مشوَّهة)، اشتغلتَ بالبوليتيك لذلك أنتَ هنا، لكن لا بأس سنُصلحك. عقًّا يملك أكثر من حقيبة في خدعته... المهم أنت فاهم؟».

لا أجيب. أخرج وأبحث عن الـ«طاطا». تتشابه جميعها. يلحق بي عَقًّا ويشرع في الحديث إليّ كأننا صديقان. يستحضر الهند الصينية، إنجازاته الحربية، ذكاءَ «الصينيين»، لأن جميع الآسيويين صينيون بالنسبة إليه:

«أذكياء مثل شياطين، قصار مثل فئران، يَعْدون

بسرعة، لا تراهم ثم ينقضّون عليك ويذبحونك. قتلتُ الكثير من الصينيين. كانوا في كل مكان. عند عودتي مساءً إلى «طاطتي»، كنتُ أنظر إن كان أحدهم يختبئ تحت السرير. أنا من بنى «الطاطات» هنا. هذا ما منحتني إياه الهند الصينية. علَّمني الكولونيل فرانسوا أشياء كثيرة. رجل هائل. هو أيضاً كان يهوى قتل الصينيين. استُدعيَ ذات يوم. أُرسِلَ إلى الجزائر لقتل أشقّائنا. منذ ذلك اليوم، لم أعد أحبُّه. أنا، كي أنتقم لنفسي، ساعدتُ إخواني الجزائريين. كل هذا «بوليتيك»».

داخل الـ«طاطا»، أنام فوق الأرض. في جميع الأحوال لا وجود لسرير، لكن كان يمكن أن أبسط ثيابي وأضطجع فوقها. يبلغ مني التَّعبُ أن أنام في الحال. لا أرى أيَّ حلم.

الاستيقاظ في الساعة السادسة. أشمُّ رائحة شيء بعيد الشّبه بالقهوة. ماء قذر، ساخن، لا طعم له. الخبز لا يقلُّ يُبساً عن أمس. لحسن الحظ توجد قطعة جبن البقرة الضاحكة. أبتلعها وألحس الورق.

أشعر أني صرتُ قصيراً. أُحسُّني، من دون شعري، منكمشاً، مسحوقاً؛ بقّة، حشرة بين أيدي المتوحشين. مجزوز مثل خروف، مثل محكوم بالإعدام. أتذكر حكاية

«شمشون ودليلة» والقوةَ الكامنة في شعر البطل. شعرٌ أكثر، قوةٌ أكبر. أُقِرُّ أني صرتُ شخصاً آخر، يجب أن أصمد في هذا الموقف، وإلا فإني سأهلكُ، ما يحصل لي يعني شخصاً آخر، أعيره اسمي، لستُ سوى بديل، ظلٌّ، خيال. يجب علي ألا أشعر بأي شيء، وخصوصاً ألا أنفعل؛ عليَّ ألا أفكِّر بل أن أرضى بما يحدث من غير اكتراث. أُكرِّرُ لنفسي: ليس أنا، ليس أنا. أتحسّسُ جمجمتي حيث تشكّلت قشورٌ من دمٍ متخثِّر. قُتِّلتِ المسكينة. ها أنا لم أعد أتحدّثُ عن نفسي، الآخر حاضر، اليد التي تنزلق فوق الجمجمة ليست يدي، والجمجمة ليست جمجمتي. إني آخذٌ في الابتعاد عنّي، أتأرجحُ، أنزاح نحو مياه أخرى، لم أعد هنا، أُمثِّلُ عليَّ مشهداً ساخراً، دراما يُستحسَنُ فيها الضحك، أعدو وأجتهدُ في أن أطلع من جلدي الذي يقاوم. أتلقى ضربة في ظهري. إنه «الحجّام» الذي يقول لي (بفرنسية مشوَّهة): «فحص طبّي فوراً».

فحص طبّي

يفحص الطبيبُ، شابٌ فرنسيٌّ، آخرَ المجنَّدين. غاضبٌ. ليس ضدّنا، ولكن ضدّ العسكريين الذين يُشغِّلونه. أتعرّى تماماً، يفحصني، يلاحظ تشوُّهاً خلقيّاً في إحدى خصيتيَّ. يطرح عليَّ أسئلة. يحدث أن أشعر بالألم في خصيتي اليسرى. يقول لي: «يجب أن تذهب إلى المستشفى». يكتب فوق ورقة كلمة «Épididyme»[1] ثم يقرر أني يجب أن أُسَرَّحَ. يختم استمارةً ويوقِّعها: Exempté (مُعفى). كلمة سحرية. يحلم بها جميع المجندين. تُنطقُ «كْزا» وتكفي لأن تجعلك تُدرِكُ أنك حُرٌّ.

«عُد إلى بيتكم. لستَ صالحاً للخدمة».

المسكين! لا بدَّ أنه لا يعرف ما يجري في هذا

---

(1) «بَرْبَخ» باللغة العربية، عضو في الجهاز التناسلي الذكري. (المترجم)

المعسكر. لا أقول شيئاً. أرتدي ثيابي. أخرج مبتسماً. في حوزتي وثيقة رسمية تسمح لي أن أرجع إلى بيتنا. حكاية الخصية لا تُقلقني. بفضل هذه الخصية المشوَّهة، سأنجو من المعسكر.

في طريقي إلى القبطان، ألتقي عَقًّا. أقول لنفسي، إنه في كل مكان، يعلم كل شيء، يراقب كل شيء. أشعر بالخوف. «إلى أين تمضي؟ - ذاهب لرؤية الكابيتان علّيوة. - لماذا؟ - لأن الطبيب قال لي أن أذهب عنده. - أعطاكَ ورقة؟ - أجل. - أَرِني». يأخذ الورقة مقلوبة، ثم يُعدِّلها، ويقول: «آه، أنتَ «كْزَا»!». أجيب أنني لا أدري.

«اذهب لرؤية الكابيتان، سيكون سعيداً أن يكون بين يديه أحد الـ«كْزَا» هذا الصباح».

القبطان علّيوة رجل من الشمال، من سوق الأربعاء على ما أظن. هو من أخبرني بذلك: «نكاد نكون جيراناً، أنت من طنجة وأنا من سوق الأربعاء». يبدو مهذّباً، ابن عائلة، يظهر أنه تلقى تربية جيدة وأتساءل عن سبب وجوده في الجيش. يُحدّثني عن مدينته وعن جدّته التي تنحدر من ناحية فاس. أتساءل لماذا يحكي لي كلَّ هذا. ثم يقترب مني ويقول لي بلهجة حاسمة:

«أعطني ورقة الطبيب. آه، أنت «كْزَا»! هذا جيد!

سيمكنك أن ترجع إلى بيتكم، كم أنت محظوظ. «كْزَا»! مع أنَّ خدودكَ متورِّدة، وتبدو فتى قويّاً؛ لكن إذا كنتَ «كْزَا»، إذاً أنتَ «كْزَا». الأشخاص «كْزَا» أمرٌ نادر! يُسعدني أن يقف أمامي «كْزَا» حقيقي، لأن هناك غشّاشين، منحرفين يدّعون الجنون، لكنني لستُ ساذجاً، أُرسِلُهُم إلى مستشفى المجانين، وهناك يصيرون مجانين بالفعل... أنت صادق. الطبيب الفرنساوي أنجز فحصه جيداً. أنتَ «كْزَا»! يا لحظِّك! أنتَ سعيد؟ أخبرني بما تشعر به وقد صار في إمكانكَ أن تُفلِتَ من هذا الجحيم الصغير الذي يُخرِجُهُ لاجودانْ عَقًّا، الرجل ذو الرأس المجزوز...».

يأخذ في الضحك بصوت عالٍ، الأمر الذي يُقلقني.

وهو يُحدِّثني، يُمزِّقُ الشهادة الطبية التي تُعفيني من الخدمة في المعسكر.

«انظر، لم تعد «كْزَا»! هذا سحر. منذ دقيقة واحدة كنتَ «كْزَا»، وها إنَّكَ لم تعد كذلك، أيها المُخنَّث». يَهُمُّ بأن يوجِّه لي ركلة. «هيّا، اغرب عني، لا أريد أن أراكَ هنا مرة أخرى».

في طريق عودتي إلى الـ«طاطا»، يُمسك بي عَقًّا ويقول لي: «لم تعدْ «كْزَا»! هذا جيّد. أنتَ في الفرقة اثنان.

ستلتحق برفاقك الصغار، الشيوعيين، الخونة، المخنّثين... سنستمتع. تَذكَّر الصينيين. بالنسبة إليَّ أنتم صينيون صغار من دون شجاعة...».

مُعاقَبو صاحب الجلالة

رقم تسجيلي هو 10366. لا أزال أتذكر ذلك اليوم. كل الذين يبدأ رقمهم بـ 10300 هم من ضمن معاقَبي صاحب الجلالة. ليس لا مكتوباً ولا منطوقاً، لكن العقوبة، والتقويم، والدرس، والضبط، كلّ ذلك يسكن الرؤوس. أيُّ فعلٍ خطير اقترفناه؟ الانتظام بصورة شرعيّة، التظاهر السلمي، المطالبة بالحرية والاحترام. أن نكون ذواتَنا، بكثير من السذاجة والأوهام بلا شكّ. يبدو أننا لسنا الوحيدين في هذا الوضع. في مصر، يرسل عبد الناصر المعارضين الماركسيين إلى الصحراء ويسلِّمهم إلى مرضى نفسانيين ليسيئوا معاملتهم.

نشكِّلُ فرقتين من المعاقَبين، من 45 و49 عضواً. جميعنا طلبة، باستثناء موظف سامٍ، مهندس فلاحي يوجد هنا لأنه رفضَ تعييناً قرّرَهُ القصرُ، وأستاذٍ جامعيٍّ مُتَّهَمٍ بكونه أحدَ منظِّمي مظاهرات 23 مارس 1965 وقادتها.

أما نحن، فينتمي أغلبنا إلى مختلف مكاتب «أوطم»، نقابة طلابية معروفة بمواقفها اليسارية. ما إن رأيتُ عَقًّا حتى أدركتُ الهُوّةَ التي تفصل بيننا. ليس لا بالأمر الجديد ولا الأصيل: في مواجهة الحساسية، والذكاء، تفرض السلطةُ العنفَ والبلادة. السلاح الأول هو الإذلال، ذلك العنف القائم على دحرنا، ودفعنا إلى حافة الهاوية، وتهديدنا بتلقّي ركلات في البطن. أستنجد بذكريات قراءتي؛ لا أدري إن كنتُ أستظهرُ بأمانة ما قرأتُهُ أم أنني أختلق الجُمل. أُفكِّرُ في دوستويفسكي، وتشيخوف، وكافكا، وفيكتور هوغو...

تلقّى العسكريون الأمرَ بإعادتنا إلى الطريق المستقيم، ذاك الذي قرّرهُ النظام. ولتلك الغاية أُعِدَّ برنامجُ سوءِ معاملةٍ وإذلالٍ من لدن خليّة الأمن في وزارة الدفاع الوطني. يشتركُ ضباطُ الصفّ الذين جُنِّدوا للاهتمام بنا في أنهم جميعاً يتكلمون فرنسية تقريبية، بخلاف المعاقَبين الذين هم تحت أيديهم. ينطقون «راسْما» مكان «Rassemblement»، و«أكامادْما» مكان «À mon commandement»، و«أونْ، دو» مكان «Une, deux»... إلخ.

نملك في نظرهم رؤوساً صلبة. وسيتكفَّلُ عَقًّا

ومعاونوه بتليينها. والشفرة القديمة التي تحلق جماجمنا ليست سوى مقدِّمة لما يرصده لنا عساكرُ صاحب الجلالة.

تتوالى في رأسي مشاهد لتشارلي تشابلن. لِمَ يزورني شارلو الطيب في هذه الأرض المجدبة الملوَّثة بالعسكريين السَّفَلة. أضحكُ بهدوء؛ بل إني سعيد بتلك الرؤى في هذه اللحظات العصيبة. يسكنني ذلك الرجل الضئيل الطيب الذي يُفلِحُ في أن يهزأ من أولئك الأجلاف الذين يلاحقونه. لقد انتقم ذاك العبقريُّ لملايين المُهانين في العالم. تلك كانت مهمّته، وغايته. شكراً شارلو.

أحجار ثقيلة تحت الشمس

قرّر كومندان المعسكر، اعبابو، الذي لم نكن قد رأيناه بعد، بناءَ سور على بعد خمسة كيلومترات من بوابة المعسكر الشمالية، طولُهُ مئة وخمسون متراً وعلوُّهُ خمسة أمتار. سورٌ لا يحتاجه أحد. سورٌ عديم الجدوى، عبثيٌّ وسط الحقول، سورٌ لتبرير نقل أحجار ضخمة من لدن المعاقَبين. لِمَ لا يجعلون الأمرَ نافعاً ببناء مساكن للقرويين الذين تنهار بيوتُهم كلَّ شتاء بعد هطول الأمطار؟ لِمَ لا نؤدّي خدمة لأناسٍ في أمسِّ الحاجة إلى من ينقذهم، ويساعدهم؟ لماذا. . . أتوقَّفُ عن التفكير. نحن في أرض العبث؛ لا كلام، لا اقتراح. لا بدَّ أن اعبابو فخور باكتشافه: سورٌ من أجل لا شيء، هكذا، سورٌ يُبنى ثم يُهدَم. ممارسةٌ مجانيةٌ لسوء المعاملة.

تُفرغُ شاحنةٌ أكواماً من أحجار البناء المستوردة من خارج المعسكر. يُعطوننا قطعة قماش من متر مربّع تقريباً. نضع فيها الأحجار، نصنع نوعاً من العقدة بأطراف الثوب

الأربعة وننقل فوق ظهورنا الحمل الذي يتراوح وزنه بين عشرين وثلاثين كيلوغراماً. من يسقط يتلقَّ ضربة عصا تليها ركلاتٌ عديدة. يجب العمل بسرعة. يجبروننا على المشي بسرعة. لا ماء للشرب. لا استراحة. يجب أن تُقطَعَ الكيلومترات الخمسة في أقل من ساعة واحدة. بخطوات حثيثة مثلما يقول عَقًّا (بفرنسيته المشوَّهة)، «À ptites folis». يسبُّنا السّرجانات الذين يرافقوننا: «بسببكم نُعاقَبُ نحن أيضاً!». نصلُ، نُفرغُ. أشعر بالألم في ظهري، أقوم ببعض الحركات لتهدئة الألم. يراني سرجان، ينقضُّ عليّ ويضربني ضربة بالعصا على قفاي. كدتُ أسقطُ ولا أنهض. يَسبُّني ثم يبصق فوق الأرض. يسود الصمتُ الصّفوف. حتى نظراتُنا مراقَبة. يلتصقُ القميصُ بالجلد. يطلبُ أحدهم قليلاً من الماء. لا ماء! غير وارد أن نَقْفُلَ خفافاً والثوب فارغ. هناك رمل وخشب علينا أن نعود به. نحمل أثقالنا من جديد ونتوجه نحو المعسكر. ما أن نُفرِغَ حمولتنا، حتى نستلم أحجاراً أخرى لنقلها. لدينا الحق في شرب حصة صغيرة من الماء.

بعد أسبوع واحد، اكتمل بناءُ السور، ثم هُدِّمَ في الحين. يجب علينا أن نعيد الأحجار إلى المعسكر، حيث تنتظر شاحناتٌ لإرجاعها إلى المكان الذي أُخِذت منه. ومن جديد، نجري، ونحمل، ونسلك طريق العودة، محمَّلين بالأحجار فوق ظهورنا.

دامت تلك العمليةُ خمسة عشر يوماً. وبعد انتهائها جمَعَنا الكومندان اعبابو وخاطبنا قائلاً:

«**بالْكُمْ!**» (انتباه). أنتم هنا لتتعلّموا حبَّ وطنكم وتقديره. أنتم هنا لتكونوا جديرين بأن تستظلوا بهذه الراية الرائعة. أنتم هنا كي تتعلّموا وكي تَنسوا. تعلُّم الطاعة، وتعلُّم الانضباط والشرف. نسيان التمرّد، والأفكار الخبيثة، والنذالة، والخمول. وصلتُم إلى هنا وأنتم مخنّثون، وعندما سترحلون، إن رحلتم يوماً ما، ستكونون رجالاً، رجالاً حقيقيين، وليس ذلك الضرب من الأطفال المدلّلين الذين يُطعَمون الحليب المجفَّف المستورَد ولبن الزّبادي. هنا أنتم لا وجود لكم، أنتم رقم تسجيل. أملكُ كلَّ الحقوق عليكم، ولا حقَّ لكم. هكذا هو الأمر، من لم يُعجبه يمكنه أن يتقدّم خطوة. اسمي كومندان اعبابو. أنا قائد هذا المعسكر. أراقبُ كلَّ شيء. لاجودان شيفْ عَقّا الحاضر هنا هو نائبي. هو أنا عندما أكون أنا غير حاضر. لا أنصحكم بأن تُزعجوه وبالأحرى ألا تُطيعوه. لا يعرف سوى القوة، والضرب، والعنف الذي يجعل أيَّ واحد يتضعضعُ إلى مرتبة الحيوان. مفهوم؟ انصراف!».

وقُبيل أن يصيح «انصراف»، تقدَّم تعيسٌ خطوةً. يجلده الكومندان بسوطه إلى أن يُدمِيَهُ، يركله ركلات تُسقِطُهُ وينثال عليه بالضرب وشَتْمِ أمّه وأبيه وجميع

أسلافه. يُرغي الكومندان، وهو يتفصّدُ عرقاً، ويصيح ولا يعود يدري حتى أين يُوجِّهُ ضرباته. يتدخّلُ عَقًّا ويتمكّن من إيقاف عذاب ذاك المتهوِّر الذي جرؤ على أن يتقدّم من الصفِّ دلالة على الاحتجاج.

اعبابو رجل ربعةٌ، قويُّ البنية، عيناه برّاقتان، واثق الخطوة، ذو نظرة حادة وقاسية، من دون أي تردّد. ينصرف كأن شيئاً لم يحدث. يأخذ جنديان الرجلَ إلى المستوصف. ضلعان مكسوران وضرس مفقود. في جميع الأحوال، لا بدَّ أننا مراقَبون ويُفشى أمرُنا عند أي تفكير في الاعتراض. يقرأ اعبابو في عقولنا.

استوعبنا الدرسَ. نحن هنا لنُطيع ونصمتَ، ونحنيَ رؤوسَنا والوقوف في انتباه ما أن نُؤمَرَ بذلك.

أتطلَّعُ حولي. جميعنا مذهولون ومصعوقون خوفاً. إنه شعورٌ لا يشبه في شيء ما عهدناه. هنا، العنفُ، والضرب، والدم، وربما الموت. محاصَرون بالحقد والوحشية. لا بدَّ أن هؤلاء العسكريين قد اختيروا بعناية. ربما جُلبوا من المستشفيات النفسية. الأمر الأكيد هو أن الجيش لا يمكن أن يكون آلةً للعقاب والإساءة. بَيدَ أنَّ عَقّا ومساعديه فخورون بدورهم. أشعر بالخوف في أحشائي، وسيستقرُّ بها لمدة غير قصيرة. في العشرين من العمر، لا يودُّ الواحد أن يحرق حياته وإثارةَ مجنون حانقٍ

قادر أن يمحقنا. نحن، في هذا المعسكر، معزولون عن العالم. لا سبيل إلى طلب النجدة، لا أحد سيسمعنا، ولا أحد سيأتي لتخليصنا. معسكرٌ منعزلٌ، منطقة مُقفَلة. زعموا لكثير من الأُسر أننا نقوم بالخدمة العسكرية. لكن لا أحد يُصَدِّقُ ذلك. لم يكن ذلك الواجب قائماً قبل اعتقالنا. اخترعوه للتغطية على محاولتهم تقويمَ شبابٍ حيويٍّ أكثر من اللازم في منظورهم والذي تجرّأ على التظاهر ضدّ قرارات جائرة أصدرتها وزارة التربية الوطنية. نحن هنا لنكون عبرة.

يصيبني ما نحصل عليه من أكل بالمغص. لستُ بالرهيف، غير أن معدتي تتأثر بالمواد التالفة. أمر عادي. لذا أتجنّبُ الأكل. غير أني، على الرغم من ذلك، أعاني منذ أمس من إسهال مؤلم. المراحيض هي المكان الأخبث في المعسكر. مراحيض بلدية على الطريقة التركية. مجرد ثقب. بين الفينة والأخرى يُطِلُّ فأرٌ فَزِعاً. أصرخ. حدث أن أمسكتُ نفسي يوماً كاملاً حتى لا أضطر إلى ولوج تلك المزبلة الرهيبة.

يقضي البعضُ حاجته في الطبيعة. لكن من يُضبَط يَكُنْ مصيرهُ الحبس. أخبرنا أحدُهم بوجود مراحيض نظيفة في مطعم الضباط. كيف الوصول إليها؟ إنها منطقة

محرّمة. عندما نمرُّ بالقرب من المطعم، نشمُّ روائح الطبخ الجيد، غير أننا يُحظَرُ علينا التوقفُ أمامه، وبالأحرى أن ندخله. فركَ أحدُ رفاقنا إبهامه بالسبّابة دلالة على الرشوة. إذا مَنَحْنا الجنديَّ في المدخل بقشيشاً سيسمح لنا بالتغوّط بشكل نظيف. يحبس البعض أنفسهم إلى أن يشير إليهم الحارس بصفيره أن يتقدّموا. كلنا مستعدّون أن ندفع مقابل التغوّط بسلام!

يسود الفساد في كل مكان، حتى في هذا المعسكر التّعِس. لكن ينبغي اتخاذُ الكثير من الحذر.

يوجد بيننا شخص ذو بشرة ناصعة البياض يكاد يكون أمرد. يحدث أن يستدعيه أحدُ الضباط ثم يعود بعد ساعة أو ساعتين. يرفض أن يُجيب عن أسئلتنا. نقرِّرُ وضعَه في العزل الاحترازي. ما الذي يفعله خلال ساعات الغياب تلك؟ هل يُقدِّمُ تقارير للضابط بما يُقال وبما يُحاكُ داخل الحجرات؟ ذات يوم ندركُ الأمر كلَّه: يمارس الضابطُ عليه الجنس. عندما يُكلِّمُهُ واحدٌ منّا في ذلك، يُجهشُ بالبكاء مثل طفل ضُبِطَ متلبِّساً. يشتدُّ بكاؤه لدرجة أننا نَدَعُهُ وشأنَهُ، بل يقول واحد من بيننا: «يمكن أن نستفيد منه». نُظهِرُ له تعاطفنا، مع استمرارنا في الحذر منه. لا جُناح على أحد إن كان يحب معاشرة اليوتْنَانْ. ذاك أمرٌ يخصُّهُ. المهم ألا يصير مُخبراً.

مناوراتٌ تحت المطر

«**رَسْمَا**» (تجمُّع) في الساعة الرابعة. «**ريڤايْ**» (استيقاظ) في الساعة الثالثة. «**باكتاج بْري**» (معدّات جاهزة) في الساعة الثالثة والنصف. «**سَكَدو كومْبْلي**» (حقيبة الظهر كاملة). الأوامرُ نفسُها دائماً، يصيح بها كابورال أُمِّيٌّ، بفرنسية مُشوَّهَة، أُرسِلَ إلى هنا لإذلال طلبةٍ، مثقّفين. اليومَ دورُ «الحجّام»، ذاك الذي حلقَ جمجمتي عند وصولي. أن يكون الرأس حليقاً تماماً هو جزء من البرنامج. وكذلك أن نُخاطَبَ بفرنسية مُضحكة وتقريبية.

نتناوبُ على قيادة حُجرةٍ من مئة «جنديّ». يترأّسُ الحُجرةَ عبد النبي، شخصٌ نحيفٌ وذكيٌّ. مناضلٌ، شيوعيٌّ بلا ريب. يضطلع، على كل حال، بمهمته بكثير من الجِدِّيّة. يبرزُ الانضباط المكتَسَب في خليّة حزبية. لا مجال للعواطف. ارتدى اللباس العسكريَّ ويتصرّف تماماً

مثل الجنود الذين مهمّتُهم أن يجعلونا نسفَّ التراب. يُحذِّرنا: «أُطفِئُ الأنوار في الساعة الواحدة والعشرين. أريد أن يكون كل واحد واقفاً أمام سريره في الساعة الثالثة. أما بالنسبة إلى ما يتبقّى، فالكابورال حميدوشْ قد أعلمكم به». هو يعرف اسمَ الجندي الذي أدعوه الحجّام! أتساءل عن قدرته المدهشة على تقمّص شخصية القائد. قد يكون عبد النبي من سلالة أولئك الذين يحبّون إعطاءَ الأوامر، والقيادةَ، والتسيير، ولا يقبلون أن يُراجَعوا، بل أن يُطاعوا... لا أتصورني قائداً لهذه الزّمرة. ليست هذه أول مرة أكتشف فيها حساسيتي من فعل القيادة. أيُّ متعة يستشعرُ من يُعطي الأوامرَ ويُطاع؟ ذاك أمر لا يهمّني، وفي الوقت نفسه أمقتُ أن أكون في الجانب الآخر. أحببتُ دائماً ليس الحرية فحسب، بل النزوةَ كذلك. النظام يخيفني. والفوضى أيضاً. أحتاجُ إلى أن أشعر أني حرٌّ، أن أحلم، أن أتخيّل، أن أرقص داخل رأسي، أن أخرج من الصفوف، ألا أحمل أيَّ شارة انتماء، أن أكون متقلِّباً، مُنفلِتاً... حرّرَ شِعْرُ آرثر رامبو عقلي، ومنحني الشجاعة على أن أجرؤ على الحلم والبحث عن الكلمات المُدهِشَة لأقول الأشياء. عندما سيحين دوري لقيادة المعاقَبين، سيكون عذابي أشدّ، لأني لا أملك أيَّ استعداد لأقوم بدور الجنديّ أو الضابط وإعطاء الأوامر.

ليلٌ قصيرٌ. ليلٌ قَلِقٌ. ليلٌ بلا نوم، بلا أحلام. أتنفّسُ ببطء لأسترخي. أتخيّلُ حقل قمح تعبرهُ فراشاتٌ هائلة. أرى عروس بحر تنزلق برفق فوق سطح البحر. بحرٌ في غاية الهدوء، وزرقة، وجمال. أراني في الصيف تحت شجرة زيتون منهمكاً في كتابة أشعار. أمدُّ يدي وأمسّ العشبَ. أرفع عينيّ نحو السماء فَتَمْرُقُ نجومٌ بأقصى سرعة. أستدعي صورة خطيبتي وأداعبها. لا أشعر بشيء. رغبتي منعدمة. ثم تعيدني رائحةُ الرجال إلى الواقع. تشتمل الحجرة، التي أُعِدّت لأربعين سريراً، على أكثر من الضِّعف. يجعل تكديسُ ذلك العدد من الرجال في فضاء بهذا الضيق الهواءَ مثقلاً بروائح خبيثة. يبدو أن الكائن الإنسانيَّ يعتاد كلَّ شيء. عليَّ أن أتحمَّلَ هذه النّتانةَ بصبر، رائحةُ العرق خانقةٌ. في جميع الأحوال، لن يُجديَ الاحتجاجُ شيئاً. لن يُسكننا عَقّا بالطبع في حجرات فردية. ليس هذا فندقاً ولا مقبرة. إنه معسكر حيث يجب أن نتلقّى الضربات، فيزيقية ونفسية سواء بسواء. يجب أن نُرَجَّ بعنفٍ لأننا أطفال مدلَّلون. على الرغم من أننا، أنا وعدداً من رفاقي، ننحدر من وسط فقير، فإن الجنود يرموننا بنظرات حاقدة. يحسدوننا بكراهية لمجرد أننا تابعنا دراستنا.

إلى أين يأخذوننا؟ لِمَ هذه الاستعدادات؟ لا يحقُّ لنا أن نستفهم. يُمنَعُ أن نستعلم، يُمنَعُ أن نأخذ الكلمة، لسنا في تجمّع عام. ممنوع أن نجتمع. لا يحق لنا تشكيلُ جماعاتٍ صغيرة. ممنوعون من التنهّد، من التعقيب، من أن يبدو علينا عدمُ الرّضا، ممنوعون من الضحك عالياً. يعتقدون أننا نسخر منهم. يجب التزام موقف محايد، موقف الطاعة. لا نقاش. يوجد عبد النبي في الجهة الأخرى، يمشي ويتكلم مثل الجنود أصحاب المهنة، يستمرئُ دَورَهُ، يمرُّ بين الصفوف ويحدجنا مثلما يفعل القبطان، يُمثِّلُ، يستمتع بذلك، يشعر بالسعادة. يعتقد دائماً أن في إمكانه أن يستفيد من الوضع. سأعلمُ فيما بعد أن ذلك الشاب سينخرط في الجيش وسيموت في الصحراء المغربية إثر هجوم نفّذهُ مرتزقة في خدمة الجزائر.

أدعو في صمت رضا الوالدين، أدعو الله ورسوله، أدعو السماء والنجوم، أدعو الغابات والبحر، الحدائقَ والبساتين، وأحصي الدقائق. لا أنظر لا يَمْنَةً ولا يَسْرَةً. أنا ما يريدني عَقّا أن أكون: جنديٌّ خاضعٌ، في سبيله إلى أن يصير رجلاً! لم أكن أعلم أن آباءنا صنعوا منّا أنصاف رجال. عَقّا موجود هنا ليُكمِلَ العمل. ينبغي أن نشكره، وربما أن نُقَبِّلَ يده، أن نقيمَ له تمثالاً وسط المعسكر، غير

أن الكومندان لن يوافق. أتخيّلُ عَقّا تمثالاً من الجرانيت، مقلوب الرأس، موضوعاً فوق الأرض، رجلاهُ ممدودتان نحو السماء. سيكون عملاً فنّياً مثيراً لتفاعلات عنيفة. لاجودانْ شيفْ مقلوب، لا يستقيم أبداً. أتخيّلُ رئيسه اعبابو يُصدر الأمر باعتقال الفنان وتفتيت العمل. لا مزاح هنا. لا إبداع. لا اختراع. الخيالُ كلُّهُ محظور. هنا، الطاعة، ولا شيء غير الطاعة.

الرابعة صباحاً. جاهزون جميعاً. ينهمر المطر بغزارة. تصطفُّ الفرقتان، البندقية عند القدمين (من نوع Mas 36)، حقيبة الظهر فوق الكتفين، مثقلة بحمولة من اثني عشر كيلو. يُوزَّعُ علينا خبزٌ يابسٌ لنبتلعه في الحال مع الجبن. نُسقى «الكاشيش»[1]، مزيج من البُنّ ودقيق الحمّص، في أقداح معدنية. رديء. لن أُعرِّضَ نفسي لغضب الكابورال وللضرب لأن القهوة غير صالحة للشرب. أتجرَّعُها ولا أقول شيئاً. الوجه خالٍ من أي تعبير. ولا خلجة صغيرة. أغمس الخبز في السائل الأسود وأبتلع. يصلُ ليوتنان ويُفتِّشنا. نخلع الخوذات ويمرِّرُ سوطاً فوق الجمجمة ليتأكّد من أنها حُلِقت جيداً. ما أن

---

(1) الكلمة أصلها فرنسي، منحوتة على وجه السخرية من كلمتَي (كافيه = قهوة) و(بواشيش = حمّص). (المترجم)

يلاحظ أن الحلاقة لم تكن دقيقة، إلا ويقرع رأس الجندي بضربة حادة ويأخذ رقم تسجيله ليعاقَب. يُضيف: «لا سبيل لخداع ليوتنان مرزوق!». أتساءل ما العمل؟ خداعه؟ اعتباره مغفَّلاً؟ لا تراودني، ولو من بعيد، فكرةُ العبث مع هذا الصنف من الرجال الذين يحتاجون إلى الاطمئنان على فحولتهم. حسناً، أنتَ الأفضل، الأقوى، الأذكى... تملك بكل تأكيد عضواً ضخماً بين فخذيك. وماذا بعد؟ ثم ماذا!

نصطفُّ بنظام تحت المطر المنهمر. مبلّلون. مبلّلون تماماً. يسيل الماء مباشرة بين القميص والجلد. الجو بارد. لا ينبغي أن نُظهر معاناتنا، لا ينبغي أن نرتعش، أن يُغمى علينا. لا، نتلقى المطر بثبات. هذا هو الجنديُّ في سبيله إلى الرجولة. لسنا ضعافاً، مخنثين، أطفالاً مدلّلين، أَكَلَةَ كعب الغزال، أجساداً رخوةً، مكسوّةً بالدهون والحنان، لسنا رجالاً مزوَّرين، شفّافين.

تَخضع إنسانيتُنا لامتحان صعب. أحتفظ بها في أعماق روحي. أَعِدُ نفسي ألا أرضخ، أن أصمد في وجه هذه الوحشية المعروضة باعتبارها قيمة. أقول لنفسي هذا هراء، من السهل أن تقود عندما تملك التحكّم في حياة الناس وفي موتهم. من السهل أن تُنكِرَ الإنسانيةَ عندما نواجهها بالقوة، والسلاح، والهمجية. غير أن كل هذا

ليس سوى سينما، سينما جدّ رديئة. يخالون أنفسهم جون وين في ذلك الفيلم البغيض الذي أخرجه الممثل نفسه، **القبعاتُ الخُضر**، حملة تُبرِّرُ التدخُّلَ الأميركي في فيتنام. بينما أقف، يغسلني ماء المطر، أفكِّرُ في جون وين الذي لم يجعلني أحلم أبداً. كان رديئاً، باستثناء أفلامه مع جون فورد وهاورد هوكس. أُفضِّلُ كيرك دوغلاس أو كلين فورد، جيمس ستيوارت أو روك هدسون. أفكِّر فيهم وأتساءل إن لم يكونوا صُوَراً. ربما لا وجود لهم؟ تغدو أفكاري مشوَّشة. آيَةُ تعبٍ كبير.

تُعيدني صيحةُ جنديٍّ إلى المعسكر وإلى الامتحان الذي ينتظرنا. أفكر من جديد في إنسانيتنا. البارحة، استغرقتُ وقتاً في قراءة الخربشات على حيطان المراحيض. يعاني هؤلاء العسكريون بصمت. التقطتُ بعض التعابير المثيرة من غير تلك التي تتحدث عن «أضخم عضو ذكري في الحاجب الذي يُمزِّقُ كلَّ شيء في طريقه»: «هذه ليست حياة»؛ «أحلم بالحياة»؛ «أقطع إصبعي لأغادر هذا المكان»؛ «لعن الله الجيش»؛ «عَقّا هو الشيطان»؛ «لا وجود لمستقبل»؛ «الجحيم هنا»؛ «أن أموت...»؛ «الارتماء على قنبلة»؛ «عاشت الحرية»؛ «الموت ولا أُسلِمُ إستي»؛ «فراولة وسكر»؛ «اللعنة!»؛ «الله أكبر»؛ «الله نسيَنا»؛ «اعبابو حقير»...

يصلُ ليوتنان آخر. «بالْكُمْ!» يشرح لنا أننا سنشاركُ في مناورات. نشكِّلُ نحن المجموعةَ الخضراء. علينا أن نهزم الفريق الأحمر. ستكون الحربُ شرسة. «استعِدّوا لمعارك حقيقية. هذه المرة لن يُستعمَل رصاصٌ فارغ، لم يعد موجوداً في المخزن، إذاً عليكم أن تتجنّبوه! الأمر ليس لعباً. هو جدّ. هكذا يصير الواحدُ رجلاً». ما أكثر ما يعرفون عمّن هو رجل ومن هو ليس رجلاً.

قبل أن ننطلق، يقول لنا هذا التدقيقَ الذي أرعبني: «يسمح القانون حتى بـ 2% من الموتى. في حالتكم، يمكن أن تصل النسبة إلى 5%. قد أنذرتُكم. ردِّدوا الشهادة: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». نكرِّرُ الشهادة التي يتوجب على كل مسلم أن يتفوّه بها عند دنوِّ الموت. هذا إخراج مدروس بعناية. الفزع حاضرٌ بما أن الموت محتمَلٌ عند آخر هذا النهار الطويل.

يسود الصمتُ الصفوفَ. أشعر بالخوف. يشتدُّ المطر. أنا مُبلَّلٌ تماماً. أحسُّ بالماء يسيل في ظهري، يمرُّ فوق مؤخّرتي ويخرج عبر رجليّ. أرتعد. الموتُ تحت المطر من أجل لا شيء. أرغب في مشروب ساخن، حتى الماء الساخن سَيَفي بالحاجة.

ننطلق في الساعة الخامسة. السماء مظلمة. المطر رفيقنا الملازم. نسير مدة ساعتَين. نحن بعيدون عن

المعسكر. نبلغ الجبال. يُقال لنا إن العدوّ في الجهة الأخرى. يمكن أن يهجم في أي لحظة. يقرِّر قائدنا أن نكون أوّلَ من يهجم. يُلقي قنبلة يدوية فتنفجر، لنقتديَ به. تنطلق طلقاتٌ. إنها الحرب. أزدادُ يقيناً أن هذه المناورات إنما هي مكيدة ليتخلّص الجيشُ منّا. ينظر بعضُنا إلى بعض. بعضُهم من رأيي، والبعض الآخر -السياسيين- يؤكِّد لنا أنهم لن يستطيعوا أن يفعلوا ذلك.

لا وقت للتفكير، للكلام، علينا الإسراعُ بالاختباء، يجب إطلاق النار في كل اتجاه. لا يزال المطر يهطل. أتذكر أغنية لجاك بريل يتحدث فيها عن الموت في الشتاء. الموتُ، لأجل مَن؟ لماذا؟ يمنحني ذلك طاقة خارقة؛ أشرعُ في العَدو بكل ما أوتيتُ من قوة، أسقطُ، أنهضُ وأستأنفُ. أختبئ خلف شجرة. يلحقُ بي رفيقٌ. يقول لي إن الأمر لعبٌ، والرصاص فارغ. لستُ واثقاً من ذلك. لِمَ أُنذِرنا باحتمال سقوط 5% موتى؟ القانون في صفِّهم. لا تدري أُسَرُنا بما نقاسيه. يحسبون أننا نؤدي الخدمة العسكرية مثلما يحدث في البلاد المتحضرة. لا يخطُرُ على بالهم ما أعدَّهُ جيشُ الملك من تمثيلية للقضاء علينا. نستمر في إطلاق النار. يلحق بنا رفاقٌ آخرون. يُخبروننا بوقوع جريح. أنظر إلى رفيقي وأقول له: «رصاصة حقيقية، يا صديقي!».

منذ تلك اللحظة، نقرِّرُ أننا لن نسمح بأن نُصطاد مثل بَطّ في رحلة قنص. حوالي العاشرة، فترة راحة من خمس عشرة دقيقة. يوزّعون علينا قهوة وخبزاً. يُخبرنا الليوتنان أن الجانب الآخر وقع به عددٌ من الجرحى، وربما قتيلٌ واحد. يتحدثُ عبر «تولْكِي وُلْكِي». لغة مُشفَّرَة. أقلعَ المطرُ. نخوضُ في الوحل. يزداد ثقلُ حقيبة الظهر بفعل المطر.

استحالَ الخوفُ شجاعةً غريبة. أسيرُ وأنا أنظِمُ قصيدةً في ذهني. أعزم على تدوينها إن أنا بقيتُ حيّاً. لا أعرف لماذا، غير أني في هذه اللحظات الرهيبة أفكر في الفتاة التي أحبُّ والتي هجرتني. أُسامِحُها وأودُّ لو أراها مرّةً أخيرة. أن أحضنها، أن أحسَّ بصدرها، أن أغمر وجهي في شعرها الطويل الجميل، أن أتنفّسَ عطرها، أن أُقبِّلَ عينَيها اللتين كانت تُغمِضُهما عندما تُسْلِمُ نفسَها، ألا أقول شيئاً، بلا كلمات، بلا عتاب. أن أطرحها فوق العشب وأن أغمر جسدها بالقبلات وأنا أعلم أننا نلتقي لآخر مرة. تسكنني هذه الفكرة. آخر لقاء، آخر قبلة، آخر مرة مثل المحكوم بالإعدام الذي ينتظر طلوع النهار ليتقدَّمَ معصوبَ العينين نحو مصيره. أشعر بدموع تترقرق، غير أني أحبسها. من ذا الذي لم يحلم بأن يعيش عناقاً أخيراً، آخر جملة في رواية عاطفية مبتذلة وقوية في الوقت نفسه؟

أُقرِّرُ أن أَقْنَعَ بالذكريات، أعرضُها أمامي وأتأملها بحزن. تتطفَّلُ صورٌ مناقِضةٌ على عرضي الصغير. هي، دائماً هي، بين أحضان شخص آخر، تضحك عالياً، تجري فوق شاطئ طنجة الخالي، تُسدِلُ شعرها ثم ترتمي فوق الرمل، في انتظار أن يأتي عشيقُها ليأخذها. أطردُ كل ذلك من رأسي وألتفتُ نحو أفق آخر.

رأسي طافحٌ بالإشارات الأدبية والسينمائية. يَمُدُّني ذلك بالطاقة والرغبة في تجنّب أن أُقْتَل. أنا مستنزَفٌ. فاقدُ القوة. أتهاوى. أُحْمَلُ وأُسْنَدُ إلى جذع شجرة. يصلُ سرجانْ وينعتني بال«مخنّث». لا أردُّ. يُعطيني سرجانْ آخَر قُرصاً برتقالياً لأمضغه، قد يكون فيتامين سي. أنهضُ وأقتفي الفرقة.

الثانية عشرة، استراحة الغذاء. سردين بالزيت، جبن البقرة الضاحكة، وقطعة من شوكولاته مرة. أفحص تاريخ انتهاء الصلاحية على ظهر علبة المصبّرات: التاريخ متجاوز طبعاً. أحسُّ أني لن أُفلِتَ من مغص البطن. «بعد كل هذه المدة التي أكلنا فيها أطعمة فاسدة لا تصلح حتى للخنازير، لا بدَّ أننا قد اكتسبنا مناعة»، يقول لي جاري. يتجشّأُ ويُكمِلُ سرديني. تتلو ذلك جلبةٌ كبيرة. يبدو أن شيئاً خطيراً قد طرأ. ربما أن جنوداً قد ماتوا فعلاً. تعبر

سيارة جيب بسرعة يقودها طبيب (نُميِّزُهُ بفضل قبعته الحمراء). رصاص حقيقي. موت حقيقي.

تتوقف المناوراتُ حوالي السادسة عشرة. أَوقِفوا النار! نرجع! لكن بأي حال؟

خِرَقٌ. أجسادٌ مبلّلة حتى العظم، مُجوَّعة، معنَّفة، مدفوعة إلى أقصى حدود الصمود. لا نملك ملابس احتياطية. نخلع ثيابنا العسكرية وننشرها لتجفَّ داخل الحجرة. مُنْهَكون تماماً. ينادي عبد النبي باللائحة. ينقص جنديان. يعيد النداء. تجمُّع. أحد الرجلين كان في المرحاض، يلحق بنا ممسكاً ببطنه. يوبِّخُهُ بكثير من العنف. ينطلق لإعلام الليوتنان الذي يُخبر لاجودانْ عَقّا الذي يهمس في أذن الكومندان اعبابو. ينقص رجل. لا أعلم من هو. قد يكون استغلَّ لحظة فوضى خلال المعركة ليهرب.

في المساء، تجمُّع لكل المعسكر، المعاقَبين والآخرين، المجنَّدين المتطوِّعين، الجنود المحترفين. كأننا في عرض مسرحي، كلُّ شيء منظَّم بإتقان. السماء مظلِمة. الأشجار جامدة. الجبال حولنا نائمة. يصل الكومندان اعبابو، محفوفاً بمساعديه. يتابع عَقّا المشهد

وهو يقف جانباً. صمتٌ مطبِق. سوادٌ نذيرٌ. الهواء ساكن. لا شيء يتحرك. فجأة يعبر غرابٌ الساحة.

انتباه! خطاب القائد:

«كانت المناوراتُ ناجحة. خمسة جرحى وثلاثة موتى فحسب. لكن ليس هناك جرحى (يلفظ بقوة)، ليس هناك موتى. لم يمت أحد، تسمعون، لم يمت أحد اليوم. انصراف! سيوزَّعُ عليكم عشاء ساخن».

لم نعرف أبداً من كانوا أولئك الجرحى وأولئك الموتى. أما الجريح من مجموعتنا فقد اختفى. يُقال إنه نُقِلَ إلى مستشفى محمد الخامس بالرباط.

منذ ذلك اليوم أدركتُ من هو الكومندان اعبابو حقاً وما يمكن أن يقترفه. متهوِّرٌ وحامي الطبع. حازمٌ ولا إنساني. قاسٍ وعنيف. جنديٌّ يطمح إلى أن يصير أسطورة. إنه قنبلة موقوتة.

أطلب من شقيقي أن يرسل لي كتاباً من كتب الجيب، أضخم كتاب ممكن. ثلاثة أشهر بعد ذلك، أتسلّمُ مجلداً من تسعمئة صفحة. أفتحه بتكتّم: **عوليس** لجيمس جويس. أَلحَقَ به رسالةً كتب فيها: «لم أجد أضخمَ من هذا. ستجد ما تقرأ لمدة شهر على الأقل!». لا بدَّ أنه

رواية عن الرحلة. أقرأ على ظهر الغلاف الأخير: إنها حكاية تدور أحداثها خلال يوم واحد بمدينة دبلن، في 16 يونيو 1904. ليوبولد بلوم وديدالوس يتجولان في المدينة... أتساءل عن وجه العلاقة بـ **الأوديسا**. أغوصُ في المجلد في المساء نفسه. أشعر بالضياع، ولكني في الوقت ذاته سعيد أن صار لي صديقٌ، رفيقٌ جديد. لا أدركُ مغزى الرواية، لكني أقرأها على مهل كأنها كُتِبَتْ من أجل مُتَيَّمٍ بالأدب محرومٍ من حريته. عندما أعيد التفكير اليومَ في ذلك الكتابِ، أتذكّر انفعالات القراءة المختلَسَة، السرّيةِ، والمتعةَ التي كانت توفِّرُها لي. كنت لا أعبأُ بأن أفهم أو لا أفهم ما أقرأ. كنتُ أقرأ لأقرأ. كنت أعشقُ التهامَ صفحاتٍ، رائعة السّبك، في ذلك الوسط الذي كان يُلغي كلَّ ما يمكن أن يُذكِّرَ بالثقافة، بالذكاء.



مستشفى محمد الخامس

تنتشر شائعاتٌ. اعبابو في ورطة كبيرة. عَقّا كذلك. المعاملات السيئة تجاوزت الحدود. يبدو أن الجنرال ادريس بن عمر غير راضٍ. قد يكون الموتى أكثر من ثلاثة. تحسَّنَ الطعام قليلاً. لم نعد نحصل على لحم فاسد مطبوخ في شحم الجَمل. بل إننا، لأول مرة، نأكل دجاجاً. كان نتناً بعض الشيء، لكنه قابل للأكل. أخبرنا أحدُ عمّال المطعم أنه لم يسبق له أن رأى مثل هذا: «يشتري الجيشُ المواد التي لم تعد صالحة للاستهلاك؛ بل أعتقد أنهم يحصلون عليها مجّاناً، والدليل على كونها خطيرة، أننا نتسلّمُ أقراصاً من الدواء لوضعها في الطنجرة». لا بدَّ أن الكومندان يشتري، بأموال الطعام، صناديقَ الخمر، والطعامَ الجيّدَ المستوردَ، وصناديق الفواكه والخضراوات الطازجة. ثم، يستدعي الشّيخات ويُقيمُ الحفلات على حساب رجالٍ مُعاقَبين.

نعرفُ أن صحّتنا لا تهمُّهم في شيء. نحن هنا لنعانيَ ونندمَ على ما اقترفناه في الحياة المدنية. لكن ما الذي فعلناه من سوء؟ الاحتجاج، الاعتراض، التظاهر؟ لم نكسر واجهات المتاجر، لم نسرق ولم ننهب، إنما صرخنا في وجه اللامساواة، والاستبداد، والقمع. مثلما يقول أبي: «لسنا في الدنمارك». لا، نحن في بلد جميل يحتكرهُ مَلِكٌ وخُدّامُه. هم كثيرون وشتّى، أولئك الذين يخدمون الملكية منبطحين على بطونهم، وقد تخلّوا عن كرامتهم، ويريدون أن ينبطح الجميعُ، مثل صنيعهم، أن يصيروا ممسحة أو بساطاً يُنظِّفُ العاهلُ فوقه رجليه.

تدور الجملة الأولى من رواية بول نيزان **عَدَنْ العربية** (*Aden Arabie*) في رأسي مثل أنوار نِيونِ فندقٍ تشتعل وتنطفئ كلَّ ثوان: «كنتُ في العشرين. لن أسمح لأحد أن يقول إنه أجمل سنّ في الحياة».

أجل، عمري عشرون سنة ولا أدري إن كنتُ سأغادر يوماً ما هذا الجحيم. أردِّدُ هذه الجملة مثل مجنون. أفكِّر في والديَّ اللذين لم يصلهما أيُّ نبأ عن وضعي. أفكِّر في المرأة التي أُحب والتي لا بدَّ أنها الآن مع شخص آخر. هذا الغياب مؤلم. أشتاق إلى خطيبتي وأتصور أنها لم تعد ممكنة، أنها اختارت أن تعيش حياتها. لم يبلغ حبُّنا من القوة، ومن الصلابة، ما يجعله يصمد في وجه المأساة.

على الرغم من أن لقاءنا كان حبّاً من أول نظرة، انبهاراً، وهياماً. كنا في العمر نفسه أو نكاد. كانت تصغرني بستة أشهر. كنا نختبئ لنتبادل القبل. كنا نحبُّ وسط الإحباط والحاجة. كان علينا أن نحذر. يتكلم الناس ويغتابون. ذات يوم، بينما كنا نتبادل القبل تحت شجرة خارج المدينة، هاجَمَنا صبيانٌ وهم يرموننا بالحجارة ويسبّوننا. كنتُ أحميها من الحجارة ونحن نهرب. أسبوع واحد قبل اعتقالي، جاء والدُها ليكلِّم والدي. قال له (كرّر أبي عليَّ ما قاله مراراً): «ابنُكَ يخالط ابنتي. الأمرُ واحدٌ من اثنين، إما أن الأمر جِدٌّ وعندها نكتب الأوراق، وإما أن الأمر تزجية للوقت فقل لابنك ألا يقترب من ابنتي». كان ذلك الرجلُ عظيمَ الجثّة، مهيباً، شديد الوقار. أقنعتُ والديَّ أن يتقدّما بطلب الزواج. وُقِّعت أوراقٌ. كنّا خطيبَين رسميّاً. تجولنا، لأول مرة، في المدينة يداً في يد وتناولنا عصير البرتقال تحت سقيفة مقهى «بينو». غياب عجيب. فكرة غريبة. أشتاق إليها مع أنها ليست لي.

لا بدَّ أنهم يحسبوننا موتى أو مختفين. إذا استمرَّ الأمر على هذا النمط، فقد عوّلتُ على الموت. لأول مرة تخامرني فكرةُ الانتحار. فكرتُ من جديد في ذلك الشاعر الفرنسي الذي كان يقول إنه يعيش «الموتَ فوق كتفه».

فكرةٌ للخروج من المتاهة: توقُّعُ الحقّ في أن يُعدِمَ الإنسانُ نفسَهُ قبل أن يصير الإذلالُ لا يُطاق. أقول لنفسي إن الإسلام يُحرِّمُ أن يقتل المرء نفسه. جميع الديانات تدينُ الانتحار. إنه تحدٍّ للخالق. مشاعري الدينية رقيقة جداً. لا أحد يتحدث عن الإسلام، بل لا وجود لمسجد في المعسكر. طبيعي: يعتبروننا كفّاراً. لسنا مواطنين صالحين. أن تجرؤ على الاعتراض كأنك تجرؤ على أن تكون ملحداً أو غنوصياً.

خلال ساعة التمرين رأيتُ، وأنا أمرُّ، جنديّاً مرصوداً للموت تحت الشمس: دُفِنَ في الرمل إلى العنق، رأسه مواجه للشمس، وأحجار ثقيلة فوق صدره. وأنا أراه على تلك الحال، شعرتُ بالفزع والتمرد. ما الذي اقترفه البئيسُ ليستحق هذا العذاب؟ قد عصى عَقّا، لا نعلم غير ذلك.

الحرُّ فظيعٌ. أشعر بالدُّوار. أتعثَّرُ وأنهضُ. أحثُّ نفسي على الصمود. هنا يُقصى الضعفاء مثلما يحدث في معسكرات الاعتقال. لا بدَّ أن ذلك الجندي قد مات بفعل التشنجات وصعوبة التنفس. لم يعد يملك حتى القدرة على الصراخ.

أسقطُ مريضاً. حمّى شديدة. رعشة. في المستوصف

يقدِّمون لي أقراصاً. رفيقٌ من طنجة بلغ به المرضُ مداه. نُقِلَ إلى الرباط. اختفت الحمّى لكن لا أزال أعاني من المغص. لم أعد أشتهي الطعام. لا آكل سوى خبز منقوع في هذه القهوة الموبوءة. اكتسبتُ عادة الأكل السريع السيئة. الالتهام بدل الأكل. أشتكي من الشحوب أياماً عديدة متوالية كي أتجنّبَ أعمالاً أخرى. اخترعوا، بعد سخرة الأحجار، سخرةَ الطّلاء؛ أن نطلي بالجير جميع الـ«طّاطات». أشعر أن ضعفي يزداد. أصاب بالدوار. أجد صعوبة في الاستمرار واقفاً. أقول لنفسي إني سأموت من دون أن أرى مرة أخرى أبويَّ، وشقيقي، من دون أن أتحدّث إلى خطيبتي، من دون أن أرى البحر، سأموتُ فوق سرير من أحجار... إنما أفكر من جديد في خطيبتي وفي خيانتها لأني مريض. في العشرين، لا نتوقّعُ حبّاً أبديّاً. كانت تملك من الجمال، والجموح، وبعض الجنون ما يمنعها من الركون والانتظار. إنما نكتشف قوةَ الحبِّ وأعطابَه عند الغياب. لكن يجب ألّا أسمح أن تغمرني الكآبةُ واليأس.

رفيقي من طنجة عاد، معافى. يقول لي إن مستشفى الرباط ملاذ جيّد. أزداد هزالاً. أصابُ بالحمّى بين الفينة والأخرى. أجري الفحص. أُصادفُ الطبيبَ الفرنسي، الذي لا يتعرف إليّ. أُذَكِّرُهُ بزيارتي، بحكاية الخصية

اليسرى. عندئذ يتذكر. أحدِّثُهُ عمّا نعانيه من وحشية وتعذيب. يهمس لي: «أعرفُ». أسأله إن كان يستطيع أن يرسلني إلى مستشفى محمد الخامس. يجري مكالمةً، ثم يكتب لي وصفةً ورسالة. «مبدئياً، غداً، ترحل». أتذكّرُ وجهه لكنني لا أذكر اسمه.

أقوم بالرحلة بين الحاجب والرباط على متن شاحنة عسكرية تنقل البضائع. لا أطرح أسئلة. يُدخّن السائق بلا توقف. عندما لا يُدخّن، يتحدث مع رفيقه بالأمازيغية. أنا أجلس فوق صندوقٍ، مضطربَ التوازن. أرى الطبيعة عبر ثقب في الغطاء. في الحقول بقرٌ وخرفان، أغبطُها. إنها حرة. أشعر بألم في المعدة. أتقيّأ فوق البضاعة. يَسُبُّني رفيقُ السائق. لا أردُّ.

عندما نصل إلى المستشفى، يتركني السائق ورفيقه في الشاحنة ويقولان لي ألا أغادر مكاني. يتأخّران. بعد ساعة، يعودان صحبة ممرض يوقِّعُ الأوراق. أنزل من الشاحنة وها أنذا بين يدَي هذا الرجل المكسوّ بالأبيض الذي يبدأ بأن يقترح عليّ قهوةً وخبزاً مدهوناً بزيت الزيتون. يقول لي:

«شاركتَ في المناورات الأخيرة؟

- أجل.

- كنتَ محظوظاً، لم تَمُتْ!».

لا ، لم أَمُتْ والأمر فعلاً ليس سوى مسألةِ صدفةٍ وضربةِ حظٍّ. أشعر أني حرٌّ على الرغم من أني أعرف أني لا أملك أيَّ حق. أمامَ مكتب، أرى امرأة تلبس الأبيض منهمكةً في الحديث والضحك عبر الهاتف. أرغبُ في الحديث إلى أمي، أن أسمع نبرة صوتها فحسب، أن أُطَمْئِنَها ، أن أقول لها إنَّ كل شيء على ما يُرام. . . يُدركُ الممرّضُ ما أرغب فيه:

«عليك ألا تحلم يا صديقي، لا حقَّ لك في الهاتف، ولا أنا أيضاً».

منذ ذلك اليوم صرتُ أحترم كثيراً تلك الآلة. استعلمتُ عمّن اخترعَها وأحلم أن أكتب قصّته. مخترع الهاتف إيطاليٌّ اسمه أنطونيو مِيوتشي، وليس غراهام بيلْ كما تعلّمنا. لا يهمُّ، ليس عربيّاً! أتذكر أن أمي كانت تسمّي ذلك الشيء «العبد الصغير الأسود»، وكان موضوعاً قريباً من سريرها ؛ كانت تقول لي: «أهوى موسيقاهُ على الرغم من أن هذا الشيطان الصغير لا يحمل الأخبار السارة فحسب».

أولَدُ من جديد. أحيا من جديد. وصولي إلى هذا المستشفى العسكري الواقع على المحيط الأطلسي هو تحرّر. حتى صداع الشقيقة غادرني. حالتي معقدة. حكاية

الخصية تُحيِّرُ طبيباً. يفحصني، يَجُسُّ خصيتيَّ، يسألني إن كنتُ قد تلقّيتُ ركلة عنيفة أسفل بطني. أقول أجل. لا أتذكر تماماً. يضعني تحت الملاحظة. أخضع لأشعة، أُجري تحاليل، أُعالَجُ من التهاب الأذن، يُهتَمُّ بي؛ أصبحتُ موضوع بحث. أقضي أسبوعين، مُدَلّلاً، أطلبُ ورقاً وقلماً. أُحرِّرُ نصوصي الأولى فوق وصفات ذلك المستشفى. نحن ستة في الحجرة. جاري إلى اليسار يحتضر. شديد الشحوب، شديد الضعف. ألاحظ خصلات من شعره الأشيب فوق المخدّة. ينام فاغر الفم. أحياناً، نسمع أنيناً. يحضر ممرّض ويقول وهو ينظر إلينا: «لم يعد أمامه وقتٌ طويل؛ أبلغوني بالأمر عندما تخرج روحه». تُدهشني العبارة. أشرع في مراقبته والتحديق فيه لعلي أرصدُ «خروج الروح». أُثَبِّتُ نظري فيه. لا شيء يخرج. أتعبُ وأحاول أن أنام. فجأة، أسمع صرخة سرعان ما اختنقتْ. انتهى الأمر «خرجت الروح»، لكنني لم أرَها.

عند انقضاء الأسبوعين يأتي سرجان لاصطحابي. نقوم بالرحلة في سيارة جيب. ما أن غادرنا الرباطَ حتى أخذ يطرح عليّ أسئلة. أقول لنفسي إني قد وقعتُ على واحد من عسكريي المخابرات. ربما. يريد أن يعرف كل شيء، أسباب العقاب، رأيي في الجيش، هل يمكن أن

أفكر في التجنيد مثلما فعل هو، هل سأتزوج، ما هو السلاح المفضَّلُ لديّ، هل أحب كيَّ القمصان الرمادية، ما هو المرض الذي قضيتُ بسببه أياماً في المستشفى، هل أمتلك جواز سفر، ما هي البلدان التي قد أحب زيارتها . . .

أجيب بطريقة متقطّعة. لا رغبة لي في النقاش معه. في الأخير، يقول لي:

«آه، تحتاط مني، تعتقد أني عميلٌ سريٌّ أستدرجكَ للكلام؟ عندنا، عندما نريد أن نحصل على معلومة، لا نُراوِغُ، كهرباء في الخصيتين فيتكلم الجميع.

- أعرف.

- كيف هذا، تعرف؟

- عُذِّبَ بعضُ أصدقائي من لدن الشرطة في الدار البيضاء.

- لماذا؟

- لم تكن لديهم أبداً أدنى فكرة عن السبب، يمارَسُ التعذيبُ عشوائياً، والبوليس يحبون أن يُعلَمَ ذلك.

- تشتغل بالسياسة؟

- لا.

- لماذا إذاً تحمل رقم التسجيل الذي يبدأ بـ 10300؟ هذه شفرة بالنسبة إلينا. نَمْقُتُ السياسيين والأساتذة».

نتوقف عند مدخل مكناس ويقترح عليّ السرجان أن نتناول جعّة. أقول له إني لا أشرب. يُفهِمُني أنني أنا من يتوجب عليه أن يُهديَهُ واحدةً وأن أشتريَ له في الوقت نفسه علبة سجائر أميركية. أُنفِقُ القليل من المال الذي كنت أملكه. أطلبُ ليمونادا ونستأنف رحلتنا. يخبرني بأمرٍ كنتُ أرتابُ فيه بعض الشيء:

«تعلم، لكي لا تُنعِظوا، يضعون مادة في القهوة، أظن أنها تدعى «بْرو» أو شيئاً من هذا القبيل...

- «بْرومُورْ»؟

- أجل، هو ذا، يمنع من المضاجعة. غير أن ليوتنان زروال يستغل الأمرَ ليتحرّش بالشباب اليافعين، الملتحقين الجدد بالجيش. شخصٌ قويٌّ جدّاً، ليس من صالحك أن تردَّ عليه عندما يتكلم. لا تُفشِ هذا الكلام، لا ينبغي أن يُعتَقَدَ أن بين صفوف الجيش من يهبون مؤخراتهم. هنا يُحتقرُ «العَطّايَا»».

شهوتي في نقطة الصفر، بالـ«برومور» أو من دونه. لا شيء. ولا أدنى ارتعاش. كل شيء هنا مضاد للشهوانية إلا إذا كان المرء يفضّل الذكور، مثل الليوتنان زروال، ولا بدَّ أنه ليس الوحيد في المعسكر الذي يضاجع المجنّدين الجدد. لا شيء يتسرّب. في حجرتنا نعرف أن المغفّل الضخم، الذي يشبه سيارة «فولسفاغن كوكسِنيل» (شَبَهٌ

مدهشٌ، ما أن تلمحه حتى تتمثل أمامك تلك السيارة المنخفضة الفطساء)، يستمني مُحدِثاً كثيراً من اللّغَط. يجد صعوبة في الوصول إلى المتعة. يغضب ثم، كأنه وحيد في الحمّام، يشرع في الصراخ متهماً الجيش بخصائه.

عندما أفكر في خطيبتي السابقة، عندما أراني أداعبُها، وأقبّلها، لم أعد أحسُّ بأيّ إثارة. لا أُنعِظُ. لا رغبة لي حتى في الاستمناء. لا نتذاكر في الموضوع بيننا أبداً.

يستمتع السرجان بالسجائر الشقراء معبِّراً بعد كل نَفَسٍ عن سعادته. يصيبني الدخان بالصّداع. عندما نصل المعسكرَ، ألمحُ عَقّا، متأبِّطاً سوطه، ينتظر أمام البوابة. بينما أنزل من الجيب، يُمَرِّرُ طرفَ سوطه فوق جمجمتي ويقول لي:

«يجب أن تحلق كل هذا الزغب. وفي الحال، هيّا. بعد ذلك تأتي عندي، وبخطى سريعة (ينطقها بفرنسيته المشوّهة). . . ».

أطلب من أحد جيراني أن يساعدني في الحلاقة. أغتسل كما يمكنني. الحمّامات مقفلة مساءً. أَمْثُلُ أمام لاجودان عَقّا.

«أخبرني، ما هو مرضك؟

- عندي تشوّه في إحدى الخصيتين.

- بسبب خصية مشوّهة، تسمح لنفسك بقضاء عطلة في الرباط!».

يصيحُ، ينهضُ ثم يجلس، يُرغي، ويعرق.

«حسن، إنما أمرتُكَ أن تأتي عندي، لأنّ الكومندان يريد أن يطرح عليك بعض الأسئلة. أنتَ طالبٌ في الفلسفة، أليس كذلك؟ أوه، لا بدَّ أن هذا أمر صعب! لا أعرف ما الذي دها الكومندان غير أني مُكَلَّفٌ بأن آخذَ إليه العناصر المعاقَبَة الذين كانوا يدرسون. أنت محظوظ، لا أعرف لماذا لكنه يُؤْثِرُكَ، لولا ذلك، كنتُ جعلتك تدفع ثمن أسبوعَي العطلة، هنا لا نحب من يطعن في الظهر، أقصد الغشاشين...».

عندما أعود إلى الحجرة، يأتي الرفاق جميعهم للسؤال عن الرباط، هل الممرضات جميلات، هل الطعام جيد... يسألني شخصٌ، كنا نلقِّبه «النّمس» بسبب مظهره الطويل والرّخو، عن المقدار الذي يجب منحُهُ للطبيب كي يُرسِلَ الواحدَ منّا إلى المستشفى. «لا شيء، أقول له. يكفي أن تكون مريضاً حقّاً، الطبيب يؤدّي عمله، فرنسيٌّ يقوم بالخدمة العسكرية هنا باعتباره متعاوناً، مبدئياً لا علم له لا بوضعنا ولا بما نعانيه من إساءات، على كل حال ينبغي ألا نحدِّثهُ عن ذلك، وضعُهُ صعبٌ، يظلُّ أجنبيّاً...».

بضعة أيام بعد عودتي، نستيقظ على ضوضاء أصوات غير معتادة. إنه زواج أو شيء من هذا القبيل. ربما احتفل الكومندان اعبابو بترقيته. لا نعلم شيئاً. غير أنَّ إشاعات تقول إنه أصبح ليوتنان كولونيل. أمرٌ يُحتَفَلُ به. ومن ثمَّ صوتُ هذه الموسيقى الأمازيغية التي ترقص الشيخات على وقعها. على الرغم من أن الأصوات بعيدة عن حجرتنا، إلا أنها تصلنا قوية إلى درجة أنها تمنعنا من أن نستأنف النوم. نسمع أيضاً ضحكات، وصيحات، وزغاريد. يقول لنا أحدهم: «يحتفل الكومندان ببلوغه الثالثة والثلاثين سنة». لا بدَّ أنه عيد ميلاد يتدفّق فيه الشراب. كنّا قد رأينا في آخر النهار وصول سيارات سوداء، ليموزين يخرج منها رجالٌ أنيقون. لكننا لم نشاهد وصول الشيخات. قد يكون عَقّا أدخلهُنّ من باب مُتَوارٍ. تسبح رائحةُ المشوي في الهواء. يحتفل اعبابو وأصدقاؤه، كلهم ضبّاط سامون، يمرحون وهم لا يدرون حتى بوجود 94 طالباً شاباً بالقرب منهم يعانون الجوع وتسكنهم الكآبة. في الغد تُكَدَّسُ صناديقُ قنينات الويسكي الفارغة عند مدخل المعسكر. لعلهم وضعوها هناك ليسخروا منّا.

أمسية عند اعبابو

ذات مساء بعد العشاء، أُستدعى معيّة رفيقين آخرين عند الكومندان اعبابو. يسكن منزلاً بهيجاً ذا حديقة غُرست فيها شجرتان. يحرسه جنديان. ندخل، يُجلسنا أحدُ الجنديَّين في الصالون فوق كنبات من جلد مزيّف ويقدّم لنا شاياً. هذه هي المرة الأولى التي أشرب فيها شاياً بهذه الجودة، حلواً، بنعناع قوي. يتخذ كلُّ شيء أبعاداً غير معتادة. تبدو لي الكنبة ناعمة، ومريحة إلى درجة أن جلدي يشعر بالزّهو. ينظر بعضُنا إلى بعض دون أن ننبس بكلمة. فوق الجدار، صورة للحسن الثاني بلباس قائد القوات المسلّحة الملكية، إلى جانبها صورة بالأسود والأبيض لمحمد الخامس.

يصلُ اعبابو. نقف ونتخذ وضع انتباه. يشير لنا بالجلوس، يخلع قفّازيه، يضع ملفّاً فوق الطاولة، يرتاح ويسألنا رأساً:

«أيُّكم يستطيع أن يُحدِّثني عن لينين؟».

نُصابُ بالفزع. أن نتحدث عن لينين في بيت جلادنا، الذي يسيء معاملتنا ويُذِلُّنا. مصيدةٌ؟ استفزاز؟

ألتفتُ إلى عبّاس، المناضل الشيوعي. ما أغرب أن ننتقلَ من حجرتنا، إسطبل حقيقي للبهائم، إلى رفاهة منزلٍ للحديث عن لينين!

يشرع عباس، وهو الإنسان المنظَّمُ، في وضع حياة لينين وعملَهُ في سياق الثورة الروسية ويتحدث عن كارل ماركس ويُذكِّرُ بأصله الألماني. يشير إلى صراع الطبقات، نهاية استغلال الإنسان من لدن الإنسان... إلخ.

يُنصتُ إليه اعبابو بانتباه ثم يتدخل:

«ما الذي يقوله عن الدين؟

- ماركس هو من يقول إن الدين أفيون الشعب.

- كان عليه أن يُضيف كرة القدم!» يقول اعبابو وهو ينفجر ضاحكاً.

ثم يطرح عليَّ سؤالاً يبدو كأنه اتِّهام:

«أنتَ، قُدتَ حركة طلابية، نظَّمتَ إضرابات في الجامعة ودفعتَ صبياناً للتظاهر، أليس كذلك؟ لا تُقاطعني عندما أتكلم. إذاً، أنتَ مُحرِّض، تفهمُ في الحرب المدنية، تعرف ما فعلهُ الفيتناميون، ما فعلهُ الكوبيون...».

أظلُّ صامتاً. يصيح:

«إذاً، ألا تجيب؟»

أنتفض وأُغمغمُ جملاً بلا معنى. ثم أتماسك وأقرر أن أجيبه جدّياً. أقول لنفسي، ليكنْ، هيّا.

«أجل، سيدي الكومندان، أصدر وزيرُ التربية الوطنية، يوسف بلعباس، مذكّرةً تمنع ولوجَ السلك الثاني في الثانويات على التلاميذ الذين يتجاوز عمرهم سبعة عشر عاماً، وعلى الآخرين جميعاً أن يتوجّهوا إلى التعليم التقني. كانت المظاهرات ضدّ تلك المذكّرة في البداية سلميةً على الرغم من انضمام عاطلين وعمّال من الاتحاد المغربي للشغل إلى التلاميذ. غير أن القمع على العكس كان وحشياً. سقط أكثر من خمسين قتيلاً وثلاثمئة جريح. لكني أعتقد أن الاضطرابات اللاحقة ما كانت لتحدث لو لم تطلق الشرطة النار على الحشود».

ينظر إليّ صاحباي كأنما يشجعاني؛ أما اعبابو، فينهضُ، يتمشى، يشرب كأس شاي دفعة واحدة ويرجع إليّ:

«إذاً، أنتَ ثوريّ؟

- لا، سيدي الكومندان، أنا شاعر، حالمٌ، يوم المظاهرة كنتُ حزيناً لأنني كنت قد خاصمتُ خطيبتي... فانغمرتُ بين الجموع وتلقّيتُ الضربات.

- بكيتَ لأن فتاة غضبت منك؟

- لا، سيدي الكومندان، لم أبكِ ولكنني كنتُ حزيناً. أمر طبيعي، هذا هو حبي الأول...

- ما هذا الحكي؟ الرجل، الرجل الحقيقي، لا يقع أبداً في الغرام، وإلا فقد قُضِيَ عليه... أتعتقد أن الجنرال ديغول كان عاشقاً؟

- أجل، سيدي الكومندان، كان يعشق فرنسا!».

يشرع في الضحك، ثم يطرح على الآخَرين أسئلة عامة. عند انصرافنا، يُخبرنا أننا سننتقل إلى معسكر آخر. لا يحدِّدُ وِجهتنا، يقول فقط إن المكان سيكون مريحاً أكثر من الذي نوجد به.

أياماً بعد ذلك يزورنا الجنرال ادريس بن عمر، الذي رَدَعَ الجزائريين في أكتوبر 1963 في خضم ما سُمِّيَ بـ«حرب الرمال». لم ترضَ الجزائر أن تعيد إلى المغرب المدينة المنجمية تندوف التي اقتطعتها فرنسا وألحقتها بها سنة 1934 عندما اكتشفت بها مناجم الحديد. وكان خلف ذلك مشكلٌ حدوديّ أيضاً. في ذلك اليوم تناولنا طعاماً ملائماً، بل إننا حصلنا على تفاحة لكل واحد بدل جبنة البقرة الضاحكة.

هذه الزيارة تُقلقنا جميعاً. ربما كانت الحرب مع

الجارة الجزائر واقعة لا محالة؟ لماذا تحدّثَ الجنرال عن الحدود، عن وحدة البلد الترابية، عن التضحيات التي سيتوجب تقديمُها للدفاع عن الوطن؟...

تَعُمُّ المعسكرَ إشاعةُ تعبئةٍ في الحدود الشرقية. أقول لنفسي إنها ستكون أفضل طريقة للتخلُّص من الرؤوس المتمرِّدة والرؤوس المفكرة. كنّا 94 مُعاقَباً، ناقص واحد اختفى. إذا ما أُرسِلنا إلى الخطوط الأمامية لنحارب الجزائريين، فأكيد أننا سنُقتَلُ في الحال. تخلُّصٌ مناسب! لا بدَّ أن هذه أيضاً واحدةٌ من أفكار ذلك المنحرف أوفقير الذي أطلق النار على الطلبة في الرباط وفي الدار البيضاء. هو من أَمَرَ باعتقالنا وسلَّمَنا ليَدَيْ عَقّا.


المَوكب

فاتح يناير 1967، بضعة شهور بعد وصولي، أسمعُ، في الصباح الباكر، ضوضاء محركات الشاحنات. صوت قوي. أقول لنفسي إنهم جاؤوا ليأخذونا. سنغيِّرُ المعسكر، سنُوزَّعُ على خط الحدود مع الجزائر. أشعر بالرعب، بألمٍ في البطن، يستحيل عليّ التركيز. لا أجد أي حقد تجاه الشعب الجزائري، لا أرى لماذا سأهاجمه، إذا عصيتُ سأُعدَمُ رمياً بالرصاص. هنا لا يمكن للمرء أن يحتجَّ بسبب ضميره. هنا، الطاعة أو الهلاك. بالمناسبة، الجندي الذي عوقب هذا الصيف، بدفنه تحت الشمس، مات مجنوناً. ربما ستُعلَنُ الحربُ في الساعات القادمة. نحن محرومون من الإذاعات والجرائد. أحياناً، يكون أحدُنا يؤدّي السخرة بتنظيف مراحيض نادي الضباط. يستغل ذلك ليلتقط بعضَ الجرائد القديمة التي ننقضُّ عليها مثل الجياع. وإلا فما لنا سوى

إشاعات، وافتراضات. لا، لو أننا في حرب مع الجزائر لكنّا في حالة استنفار قصوى. إذاً يُعِدّوننا لإرسالنا إلى هناك. حربٌ صغيرة لعدّة أيام، ما يكفي من الوقت لإرسال الرؤوس المتمردة إلى الموت. خطّةٌ شيطانية. سنُقتَلُ بطريقة شرعية. الوطن في خطرٍ كان في حاجة إلى الحماية والنجدة، وهؤلاء الشباب كانوا متطوعين لِصَدِّ المعتدي الجزائري، الشقيق الذي ساعدناهُ، وأطعمناهُ، وحميناهُ، ونسيَ كل شيء.

أعرف، عندي خيال زائد. تمرُّ الصورُ وتعيد المرور بسرعة كبيرة. تقريباً أربعاً وعشرين في الثانية، إيقاع فيلم.

أجمع حقيبتي، أُخفي الأوراق حيث كتبتُ أشعاري، أحلقُ رأسي واللحية. أرتدي لباس المعركة. أنا جاهز. أفكر في والديَّ. عليَّ ألا أنهار. يأتي عبد النبي ليخبرنا أننا ربما سنذهبُ للتدريب في مدرسة قبل أن نُرسَلَ إلى الجبهة. نصعدُ في الشاحنات بعد النداء باللائحة. ألاحظ أن لا عَقّا ولا اعبابو حاضران. أرى وافداً جديداً، قبطاناً يحمل نظّارة شمسية حتى عندما يكون الظلام. والجو الآن مظلم، إنها الخامسة صباحاً. تنطلق الشاحنات. الأغطية ممدودة. لا نرى شيئاً من الطبيعة؛ لا نعرف إلى أين نمضي. نشعر بانطباعِ محكوم بالإعدام فاقدٍ للإحساس بالزمن والفضاء. أنامُ متأثراً بالجوع وإيقاع

الشاحنة المرتجّ. في الواقع، أنام لأنني أسمع كل شيء.
أحلمُ، أُؤثّثُ الزمنَ بصورٍ جميلة، بطاقات بريدية،
كليشيهات السعادة، أشياء صغيرة من الحياة نرجو أن
نَخْبرها يوماً ما. أرى مروجاً مُشمسة مع فتيات تلعب
بالطوق، أرى فراشة تنزل فوق نهد فتاة تستمتع بالشمس،
أرى جدولاً تنزلق فوقه زهراتُ النيلوفر، تدفعها يدٌ رقيقة،
أرى ألواناً، نوراً، فرَحاً... كلَّ ما لا يوجد في هذا
الاختبار حيث تُعذِّبُ أعصابُنا. لم أعد أرى شيئاً. توقّفت
الشاحنةُ فجأة. مراقبة. ينبح سرجان من دون أن نفهم
شيئاً:

«إذا «مَا كَانْ»، واحد «ولد الحرام، واحد الكلب»،
أنا، السرجان حسن من سيربّي العاهرة أمَّهُ...».

يُفزعنا غضبُه. ننزلُ جميعاً. نتوزّعُ إلى أقسام. يصيح
السرجان:

«صحِّحوا الصفوف» (يقول بفرنسية مشوَّهة).

الوقت نهار، نوجد في رأس جبل. في البعيد أشاهد
دخاناً ينبعث من سطح بيتٍ صغير. أتخيّلُه يسكنه راعٍ
شابٌّ وابنة عمه التي صارت زوجتَه. بسيطان وسعيدان.

«بالْكُمْ!».

يمرُّ السرجان ويَعُدُّ. يصيح من جديد:

««ما كانْ واحد ولد الحرام»، اعثُروا عليه، وإلا فعقاب جماعي».

يتحدّث إلى رئيسٍ له عبر «تولكي ولكي». يمزج أحياناً العربيةَ والأمازيغيةَ بكلماتٍ فرنسية.

الغائب هو مارسيل، اليهودي الوحيد من بين المعاقَبين الـ 94. فتى طيّب اعتُقِلَ بينما كان يُوزِّعُ منشورات عن فلسطين. أبوهُ مناضلٌ شيوعي معروف في المغرب. ليس من النوع الذي يعصي، لكن ربما لم يستيقظ، أو قد يكون مريضاً ونامَ في المستوصف. لا بدَّ أن هذا ما أُخبِرَ به السرجان من رئيسه. فقد سمعنا طرفاً من جملة: «سيأتي مع المكلَّفين بالصِّيانة». بعد نصف الساعة السيّئ هذا، نستأنف الطريق.

تسير الشاحناتُ ببطء، تصعد بصعوبة مرتفعاتٍ حادةً، كثيرةَ المنعرجات والالتواءات. الغثيان. أرغب في التقيؤ. أحبس نفسي. رفعَ صاحبُنا الملقب بـ«النّمس» الغطاءَ وتقيّأ. تفوح رائحة عفنة، أُغلق أنفي، يُسبِّبُ لي هذا القربُ مشكلاً: لستُ مخلوقاً للعيش مع الناس. أكرهُ هذه الإنسانيةَ المُكَدَّسةَ في هذه الشاحنات. بعضهم ينام واللعاب يسيل منه، آخرون يلعبون الورق الذي صنعوه من قطع كرتون، الجميع يَضْرِطُ، يتعفّنُ الجوُّ، وأنا أتعذّب، أجل، أنا إنسان ضعيف مثلما قال لي عَقّا في البداية،

ضعيفٌ، هشٌّ، متحضِّرٌ، كارهٌ لكوني تحوّلتُ إلى سمكة سردين داخل علبة ألتصق فيها بأسماك سردين أخرى. هذه هي المأساة، ولا شيء يمكن فعله. أهدأُ وأتذكر الأبيات الأولى من قصيدة «Voyelles» (حروف العلة)[1]:

«A» سوداء، «E» بيضاء، «I» حمراء، «U» خضراء، «O» زرقاء: يا حروف العلة،
سأقول ذات يومٍ ولاداتكِ الكامنة؛
«A» هي البطنُ الأسودُ لذُباباتٍ ألِقة
تطنُّ حول نتاناتٍ فظيعة

هذه «النتاناتُ» التي أتحمّلها هي التي تجعلني أفكر في رامبو. تسمح لي هذه الأبيات بأن أسافر، أن أغادر شاحنة البؤس هذه. لا أملك ما أواجه به هؤلاء المتوحّشين سوى الشعر. الكلماتُ، والصّورُ، والالتماعاتُ، تُفلِتُ من مراقبتهم. قلَّما احتجتُ إلى الشعر احتياجي إليه في تلك الأيام. كلما سنح لي الأمر، أكتبُ أبياتاً من دون أن أفكر في معناها. تسكنني أسطورةُ أورفيوس وكذلك سبارتاكوس. يُصبح الشعرُ حليفي،

---

(1) آرتور رامبو، **الأعمال الشعرية**، ترجمة كاظم جهاد، آفاق للنشر والتوزيع - منشورات الجمل، القاهرة، 2007، ص 297. (المترجم)

مَلجئي، فراشي ولياليّ. يحدث أن أكتب في رأسي في انتظار فرصة العثور على قطعة ورقٍ أدوِّنُ فوقها أبياتي. كنتُ أستعمل، في السابق، غطاءَ المائدة الورقيَّ في المطعم. ثم استبدلوا به غطاء بلاستيكياً. طلبتُ مرّةً أوراقاً من الطبيب فأعطاني وصفة. وإلا، فإن بلوم وديدالوس يؤنساني. يساعدني تجوالُهما في دبلن، التي لم أكن أعرفها بالطبع، على الهروب وأشعر بالرغبة في الحديث إليهما، أن أقفز في الزمان والمكان لألقيَ عليهما التحية. أَضُمُّ إليَّ المجلّدَ الضّخمَ وأقول لنفسي: ذات يوم سأكون حرّاً وسأذهب إلى دبلن.

كانت ذاكرتي دائماً صديقة مُخلصة. على الرغم من أنها تُثقِلُني أحياناً، فإني أحبها لأنها تُمكِّنني من الانفلات، والذهاب بعيداً وأن أستكشف من جديد أماكن متفرِّدة.

إنها أيضاً وحدتي. لا أقصد أني أَفضَلُ من الآخرين أو أستحقُّ معاملةً مختلفةً، شيئاً من قبيل تجاوز الواجب أو الاستفادة من خدماتٍ، لا، أكيدٌ ليس هذا، غير أني على يقين أن رامبو يساعدني على تخطّي هذه اللحظات التي أضطر فيها إلى أن أُخالِطَ إنسانيةً لا أشاركها إلا في العقاب الملكي. كلُّ هذا يُرهقني أكثر فأكثر وأُعرِّضُ نفسي للخطر.

ذات صباح، أغضبُ من أحدهم، ضخم الجثة، كثير التذلُّلِ للضباط؛ يقصدني وهو يسخر مني لمجرّد أنّ مسقط رأسي في مدينة فاس. أَصْلُهُ من مراكش، ويعيِّرني بشتى الألقاب:

«فْويسي»[1]، الأبلق، اليهودي الخدّاع، ثم إن الفاسيين كانوا يهوداً في القديم وأسلموا، فويسي الأجرب...».

لا رغبة لي في الردِّ. انطلقت اللكمةُ، سقطَ الرجلُ، هدّدني وهو ينهضُ، ثم أُقفِلَ الحادثُ. أوّلُ وآخرُ عراكٍ لي. لا يَحُلُّ العنفُ الجسديُّ شيئاً. غير أني مُحاطٌ بأُناسٍ لا يعرفون إلا ذلك. من بين ما يقوم عليه برنامجُ إصلاحنا التمارينُ البدنية لقياس مدى قدرة أجسامنا على التحمّل، غير أن هناك أيضاً حصص الإذلال، مثل تلك التي نخضع فيها طوال النهار لتحكّمِ ضبّاط الصفِّ الأميِّين الذين يخاطبوننا بلغة قاطعي الطريق، يذكّروننا أن حياتنا بين يدي لاجودان سيكوباتي وكومندان بلا ضمير. غير أن العذاب الأشد، إنما هو كوننا لا نعرف مقدار ما سنقضيه هنا من مدة، ولا حتى إن كنا سنُحرَّرُ ذات يوم. مجرد الاستفهام عن ذلك يُعتبر استفزازاً. علينا أن نكتفيَ

---

(1) وصف قدحي يُستعمَل مكان كلمة «الفاسي»، التي تعني المنتسبين إلى مدينة فاس. (المؤلِّف)

بالإشاعات الأكثر غموضاً. بيننا شخص قصير وبدين، يتظاهر بالسذاجة ويهذي. يدّعي تلقي الرؤى، والانتماءَ إلى أسرة عرّافين. ذات يوم دخل في حالة وجدٍ وهو يُردِّدُ: «ما من خروج، ما من خروج». إنه مقتنع أن المعسكر سيكون مقبرتنا. يقول إنه رأى عدداً من النعوش ترقص في الساحة!

نحن 94 معاقَباً، ننحدر من آفاق شديدة الاختلاف، بتقاليد وعادات شديدة التنوع، 94 من الشباب، اعتُقِلوا جميعاً في اليوم ذاته بالتوجيه نفسه «من دون استثناء»، من توقيع الجنرال أوفقير. غير أن فؤاداً، أحد أعضاء مكتب اتحاد الطلبة، أُطلِقَ سراحُهُ سريعاً لأن والده يعمل مخبراً لدى الشرطة في الرباط. هو الوحيد الذي أفلتَ من العقاب. يُقالُ إنه استُقبل من لدن ضابط سامٍ في وزارة الدفاع، الذي أشبعَهُ توبيخاً ثم طلب منه معلوماتٍ عن رفاقه. مخبرٌ بالوراثة. شخصٌ آخر رأى اعتقاله يتحوّل إلى إيداع بالمستشفى. كان اسمه زيدان. كان يكاد يُجَنُّ، ويصير هستيرياً يتأبّى على السيطرة إذا ما نطقَ أحدُهم أمامه كلمة «عسل». كان حينئذ يتغير وجهُهُ، ويصيح ويضرب كلَّ ما تطوله يداه. «عسل»، «معسّل»، «عسيلة»، كل ما يُحيل إلى العسل يصيبه بالجنون. كان يظل في

الغالب منعزلاً خشية أن يستفزَّهُ ساديٌّ. ذات يوم، ملَّ سرجان من هستيريته، فقرّر أن يعاقبه بتكليف جنديٍّ من الدرجة الثانية أن يردِّدَ أمامه الكلمة المشؤومة. أُغْشِيَ على المسكين ونُقِلَ إلى المستوصف حيث وضعوا كُرَتَيْ شَمْعٍ في أذنيه. صار أكثر عنفاً وأسرع غضباً. قرّر الطبيب أن يُرسلهُ إلى الرباط، إلى المستشفى العسكري حيث سيقضي بقية شهور الاعتقال.

تتوقّفُ الشاحنات. النزول ممنوع. يُدخِّنُ الأصحابُ ويمزحون لكن نكاتهم لا تُضحكني. لا بدَّ أنني جديٌّ أكثر من اللازم. لستُ لا بالمُقامِرِ ولا بالمُغامِر. ألاحظُ أن المُقامَ في هذا السجن، الذي لا يُصَرَّحُ بكونه سجناً، لا يُقلقُ البعضَ كثيراً، بل قد أقول إنهم يجدون فيه ضرباً من المتعة. طلبَ أحدُنا، وهو شخص ضئيل الجسم، أن يلتحق بالجيش. مجنَّدٌ مخصوصٌ. لم يُقبَل طلبُه. قيل له، يتعلق الأمر بوزارتَي الدفاع والداخلية. سأعلم فيما بعد أنه إنما طلب الالتحاق بالجيش لسببٍ لم يكن قادراً على الاعتراف به حينئذ غير أنه افتُضِح بعد ذلك.

وصلنا إلى مقصدنا بدايةَ ما بعد الزوال. الجو بارد جدّاً. أنزلُ من الشاحنة، ثقيل الرأس. نحن في قمة

جبل؛ الثلج ليس بعيداً. ما اسمُ هذا المكان؟ نصطَفُّ، الحقيبة فوق الظهر، وننتظر أمام بناية كبيرة بيضاء. مدرسة أم سجن؟ ننتظر ضابطاً أسمى. فجأة، أرى ضباط الصف والليوتنان ينشطون. يصل كومندان المكان. شاب لعوب. نظارات شمسية، زيٌّ لا تشوبُهُ شائبة. «بَالْكُمْ!». نقف جميعاً في وضع انتباه، جامدين.

لا يخطب. يَمُرُّ بين الصفوف. يفوح عطراً لاذعاً. لأول مرة أشمُّ هذا العطر. يتأنّى، يفحصُ سحناتنا، يشمئزُّ ثم ينسحبُ. إنه الكومندان الجديد.


أهرمومو

نحن في أهرْمُومُو، شمال مدينة تازة. البناية التي نُقِلنا إليها مدرسةٌ تُكوِّنُ ضبّاطَ الصفِّ والضبّاط. «يُفكِّرُ الجيشُ في مستقبلنا»، يقول لي أحد جيراني. أجل، مستقبلٌ زاهر. انتقلنا من العصر الحجري كما هو موجود في معسكر الحاجب إلى عصر أكثر حداثة بعض الشيء. لكن المعاملة هي نفسها. يجب أن نُعَذَّبَ، مثلما ردّدَ ذلك عَقّا كثيراً على مسامعنا. ينهمك سرجان في توزيعنا على حجراتٍ ذات أربعة أسِرّة. المنظر رائع. في البعيد جبلٌ تغطّيه الثلوج، غابةٌ، هواء نقيٌّ. كوننا لم نعد مُكَدَّسين في حجرة واحدة هو تقدُّمٌ معتبر في تاريخنا. يُقَدَّم لنا العشاء في مطعم. طعامٌ مناسب لكنه غير كافٍ. الخبز لا يزال هو نفسه: في صلابة المطّاط. لا بدَّ أن ذلك علامة صناعة الجيش الملكي. توجد الحمّامات والمراحيض في آخر الممرّ. يبدو المكان نظيفاً، وفي جميع الأحوال لا يُقارَنُ بما عشناه في الحاجب.

في الغد، يجمعنا الكومندان في الساحة. يمرُّ مرة أخرى بين الصفوف، يتحقّق بعصاه من جودة حلاقة الرأس، ثم يولجها في جيبَي السروال. عندها، يتوقف ويُصدر إلينا الأمر بالعودة توّاً إلى الحجرات وخياطة الجيوب.

«هنا، لا مجال لوضع الأيدي في الجيوب، هذا ممنوع تماماً؛ هنا، لا نتجوّل، لا نتسكّع، لا نمشي، كل شيء يجب أن تقوموا به عَدْواً. من يَتَمَشَّ يُعاقَبْ بأسبوع من الحبس، والحبسُ لدينا ليس حلواً، بل إنكم ستُجرِّبونه ابتداء من يوم غد الساعة الخامسة. أُكمِلُ: هنا، وصلتم إلى مستوى أعلى. كل شيء سيكون أعلى: التكوين العسكري، التمارين، الطعام، والعقوبات أيضاً. لا تُعوِّلوا على التدفئة: ليس بالرجل من يخشى البرد. درجات الحرارة عند الصفر وأغطيتكم الرمادية خفيفة. الاستيقاظ محدَّدٌ في السادسة؛ اللياقة البدنية في السادسة وخمس عشرة دقيقة؛ الفطور في السابعة وثلاثين، بداية العمل في الثامنة. مهما تكن درجة الحرارة، لباس الرياضة هو دائماً نفسه: سترة وسروال قصير، وصنادل. من يَضَعْ قميصاً تحت السترة سيُعاقَب. كلُّ غشٍّ سيُردَعُ بصرامة. هنا، نحن عسكريون، ولسنا بورجوازيين صغاراً، أولاد بابا وماما. لا أريد مخنّثين في مدرستي.

أنا مكلَّفٌ بِعَرْكِكُمْ وسترون أني سأفعل، ثقوا بي، أنا الكومندان حمّادي».

طويل القامة، ممشوقٌ، بل ولَبِقٌ، فالكومندان حمّادي ممثِّلٌ بالسليقة. حركاتُه مدروسة، يتخذ أوضاعاً ولحظات صمت جديرة بمعهد تمثيل Actors Studio. المسافة الضرورية وفعالية الرسالة. قد يكون فعلاً ممثِّلاً أرسلته قيادةُ الجيش ليُرهبنا، ويُقلِقَنا. كلُّ ظهور له يُحَضَّرُ له. تنتقل أخبارٌ: سَيَمُرُّ الكومندان؛ سيُلقي الكومندان خطاباً... ولا يَمُرُّ. انتظارٌ محسوبٌ بدقة. إتقانُهُ الحديث بالفرنسية يجعله فوق الدهماء ويدلُّ على أنه تابَعَ دراساتٍ عليا. ماذا يصنع في هذا المكان؟

في الغد على الساعة الخامسة، من دون أن نكون قد تناولنا الفطور، نُحْبَسُ جميعاً كما كان مقرَّراً. ما يشبه حظيرةً حيث الجو أكثر برودة من الحجرات. تنضح الحيطانُ بالرطوبة، من دون سرير، ولا فراش، إسمنت متجمدٌ فحسب. نُمنَعُ أن يلتصق بعضُنا ببعض طلباً للدفء. أرتعد وأتحمّلُ بصمت هذا النوع الجديد من العذاب، أقف جانباً وأسند رأسي إلى الجدار. أشعر بالألم في كل مكان غير أني أُفكر فجأة في الصلاة، لا أعرف لماذا لكن تلاوتي لسورةٍ من القرآن حفظتُها عن

ظهر قلب عندما كنتُ صغيراً تُساعدني على تحمُّلِ مقدمة الجحيم الذي ينتظرنا. أستأنفُ مع رامبو وأشعر بتحسن. كنتُ تلميذاً سيئاً في الكُتّاب، كنتُ أحفظ عن ظهر قلب آياتٍ لم أكن أُدرِكُ معانيها ولم يَدُرْ بخلدي أن تلك الآيات ستهُبُّ يوماً لنجدتي في ظروف مخصوصة مثل هذه. ذاكرتي رائعة. أكيد أنها خير صديقة لي، وإن كانت بعض الذكريات السيئة تأتي لتدهمني في غفلة مني وتؤلمني.

نُحَرَّرُ من الحظيرة حوالي الساعة التاسعة عشرة. أربع عشرة ساعة من الحبس من دون ذنب، لتنبيهنا إلى ما ينتظرنا في حالة العصيان أو الاحتجاج فحسب. يبدو أن الكومندان حمّادي مشهور بإنجازاته الحربية في الهند الصينية. ينتمي هو أيضاً إلى الجيش الفرنسي في سنوات الخمسينيات. لا بدَّ أنه يعرف عَقّا. يُقالُ أيضاً إنه حفيدٌ لأوفقير. لم أكن أعلم أن الشرَّ المجانيَّ وراثيٌّ.

أقف في الصف لآخذَ أوَّلَ حمّامٍ منذ تركنا الحاجب. الماء بارد. نغتسل بـ«تيدْ»، صابونٌ مسحوق يُستعمل لغسل الأواني. أكرهُ تلك الماركة منذ ذلك اليوم. سأحتفظ دائماً في ذاكرتي برسم العلبة مع حرف T كبير مكتوب داخل دوائر متعدِّدة.

عشاؤنا الثاني مفاجأة طيبة: سَلطة، ولحم، وخُضار.

وجبة حقيقية. أرتاب في الحين، إذا تحسّنت نوعية الطعام فهذا يعني أن برنامج الإصلاح سيكون أشد قسوة.

أتقاسمُ الحجرة مع ثلاثة معاقَبين آخرين. رفيق من فاس، وآخر أتى من القنيطرة، وشخص طيّب، كتوم، ينتمي إلى البادية، ليس طالباً. اسمه صلاح. يملك شيئاً يهمّني كثيراً: ترانزيستور فيليبس. كيف استطاع الحصول عليه، بل كيف تمكّن من أن يُخفيه طول مدّة الحجز في الحاجب؟ يُنصتُ إلى الموسيقى تحت اللحاف. أنا، ما أريد أن أنصت إليه، هي الأخبار. يُعيرني إيّاه، في مقابل أن أساعده على كتابة رسائل لعائلته. بعد أن تَصاحبنا، سألتُهُ عن سبب وجوده ضمن المعاقَبين. كان راعياً ببني ملّال؛ اعتُقِلَ لأنه كان يبيع الخراف من دون ترخيص في العيد الكبير. يروي لي حكايته. يستغرب أن نُعتَقَلَ لمجرّد أن تظاهرنا. أما هو فسعيدٌ بوجوده هنا ويقول لي إن هذا المكان أحسن بكثير من زَريبته. يُعيرني الراديو في بعض الأمسيات. أُلصِقُهُ بأذني وأبحثُ عن المحطات الأجنبية لأحصل على معلومات حول ما يجري في العالم. لا أعلم شيئاً منذ شهور. أعثر على محطة راديو أجنبية تتحدث عن فيلسوف شاب فرنسي اعتُقِلَ في بوليفيا لأنه كان صديقاً لتشي غيفارا. أتعرّفُ إلى اسمه: ريجيس دوبري. إنه في السجن منذ عدة شهور. كنتُ قد تابعتُ

سنة 1962 تطورات الثورة الكوبية في فترة أزمة خليج الخنازير. أهتمُّ لمصير هذا الفيلسوف. أتساءل عن سبب ذهابه إلى أميركا اللاتينية، وما الذي جعله يشعر بالحاجة إلى الانخراط جسدياً في ثورة تحدثُ جدّ بعيد عن بلده. أتصوّرُ أن سجون بوليفيا لا تقلُّ عفناً عن سجون أهرمومو. أقول لنفسي إن الإنسان وُلِدَ شريراً ويُصِرُّ على الشرِّ لأنه لم يجد غير الشر وسيلة للسيطرة على الآخرين. أتصوّرُ الكومندان حمّادي في هيئة كولونيل بوليفي منشغلاً باستجواب ريجيس دوبري. يُعذِّبُهُ حتى قبل أن يوجِّه إليه أسئلة؛ الأمر بالنسبة إليه في مقام التمهيد مثلما صنع معنا عندما حَبَسَنا يوماً كاملاً. أُكِنُّ فوراً تعاطفاً كبيراً مع هذا الفيلسوف الفرنسي الذي امتلك الشجاعة ليختبر أفكاره ومُثُلَهُ في الممارسة. أفكر فيه وفي أسرته وأتصوّرُ الرعب الذي يعيشه أقرباؤه. أبحث عن مزيد من المعلومات في محطاتٍ أخرى. قبل أن أنام، أطفئ الراديو وأخفيه تحت غطاء السرير. غير واردٍ أن أُضبَطَ وتلك الآلة بحوزتي. أتصور جيداً الكومندان وهو يتهمني بالتخابر مع العدو. يعني الجزائر.

في الصباح نتابع دروساً في التدريب العسكري يُقدمها مجموعة من الليوتنانات يتحدثون بدورهم الفرنسية بإتقان.

انضباط. صمتٌ في الصفوف. نشعر بالرعب من غير سبب واضح ملموس. أتساءل من جديد: هل نحن هنا إلى الأبد؟ لشهور معدودة؟ لنُرسَلَ إلى مكان آخر؟ للتوجه إلى حرب الجزائر؟ لا علم لنا بأي شيء. الليوتنانات لا يقلّون شعوراً بالرعب منا. الكومندان حمّادي لا يمزح مع القانون. نحن جميعاً خاضعون لديكتاتوريته، وإن كنا قَلَّما نراه.

تزداد معاناتنا. انتقلنا من الوحشية البدائية إلى شيء جدِّ مختلف، شيءٍ مُقلِقٍ. نُلقِّبُ حمّادي فيما بيننا بـ«لغْريبي»، وهو ما يعني «بطل الفيلم».

وحشية متطوِّرة

عقابٌ جماعي. كُسِرَ زجاجُ نافذة مسكن الكومندان. من فَعَل هذا؟ لا أحد. يصيح الكومندان المتأبِّط عصا الماريشال: «لا أريد حتى أن أعرف من هو المذنب؛ يجب أن يُراقِب بعضُكم بعضاً؛ هذا التهاون سيعاقَبُ بالعرض لأربع ساعات مدة أسبوع. هذا مجرد عيّنة لما يمكنني أن أَسُومَكُم». عرض ماذا؟ ينظر بعضُنا إلى بعض ونتساءل عمّا سيُعرضُ وأين.

في المساء ذاته، يُصدر إلينا سرجان التعليمات الآتية: غداً صباحاً، الساعة الرابعة، سترة وسروال قصير، صنادل، تجمُّع الجميع في وضع انتباه في الساحة. الاستمرار وقوفاً بلا حركة. من يَسقط يُنهَضْ ويُعاقَبْ بطريقة أشدّ قسوة.

نتحادثُ همساً. نحترسُ. داخل كل مجموعة، يوجد دائماً مُخبر. لا نقول ما نفكر فيه. نحن سياسيون في نهاية الأمر. المقاومة والسرّية جزء من قيمنا.

نحن في فبراير، تنزل درجات الحرارة إلى تحت الصفر. يثقبُ البردُ الجسم. الجيوب مخيطة. تتجمّد اليدان. يبدأ المرءُ في فقدان الإحساس بأذنيه، بأرنبة أنفه، بأصابعه. الاستمرار واقفاً، جامداً، من دون وَهَنٍ، صامداً. لا أحد معتاد على هذا البرد. يرتدي السرجانات الذين يحرسوننا ثياباً دافئة. يُدخِّنون. يشربون القهوة من وعاء حافظ للحرارة.

فيمَ نفكِّرُ عندما يتجمّدُ الجسم؟ لا نفكِّرُ. لا نعود نفكِّرُ. تتجمّدُ الأفكار. لا نحلم؛ نرى الدقائقَ والساعات تمرُّ ببطء شديد. ينهار أول واحد منّا. يلتقطه السرجانان، يصفعانه لإنعاشه. ينهضُ، يحاول أن يظل واقفاً. يسقط آخر. ردُّ الفعل نفسه من الحارسَين. تأتيني فكرةٌ: ماذا لو تهاوينا جميعاً مرة واحدة؟ أتراجع في التوّ. من شأن الكومندان أن يدهسنا جميعاً بالشاحنات. فمن يهتمُّ لمصيرنا من غير أُسَرِنا الذين لا يملكون أيَّ وسيلة لمعرفة ما يحدث لنا؟ أتخيّلُ أبي يذهب إلى مدينة مليلية لزيارة أحد أصدقائه الذي أصبح جنرالاً ويتوسَّلُ إليه أن يُطلق سراحي. لم أكن أتخيّل؛ قام به فعلاً. سأعلمُ بذلك يومَ سأتوصَّلُ برسالة من أبي. من حقنا أن نرسل رسالة واحدة وأن نتوصل بالجواب. رسالة واحدة، لا أكثر. تقرأها طبعاً أجهزةُ رقابة الكومندان. يكتب لي أبي: «رأيتُ عَمَّكَ

الحاج محمد من مليلية؛ إنه مُرهَقٌ، لم يعد يذهب إلى مكتبه». فهمتُ. حاربَ هذا العمُّ إلى جانب فرانكو، ضدّ الجمهوريين. كان يلقّبُ بـ«الإسباني». كان ابناً لزنجية جَلَبَها والدُه من السنغال حيث كان يمارس التجارة. كان «الإسباني» أسود بدوره ويحمل اسمَ أبي نفسه.

أشعر بالألم في الركبتين. تصير قفايَ يابسة؛ تفقد أصابعي الإحساس نهائياً. لن أسقط. عليَّ ألّا أرتخي، ألّا أستسلم، ألّا أضعف. لن أتلقّى الصفعات. أستمرُّ واقفاً. أفكِّر في خطيبتي السابقة. تترقرقُ الدموعُ في عينَيّ، ليس لأني أفكر فيها، ولكن بسبب البرد الذي يهاجم وظيفة الدمع. هَجَرَتْني، خانَتْني، خَدَعَتْني. لا بدَّ أن عَقّا يقف خلف هذا العقاب كذلك. ربما كان ذلك يدخل ضمن خطّته. أتخيّلُهُ وهو يهمسُ في أذن خطيبتي معلوماتٍ يروم منها تأزيم وضعي. هراء! تُسلمني هشاشتي للأوهام.

في الساعة الثامنة، نسمع صيحة قوية: «راحة!». نتفرّقُ على مهل، مثل جرحى الحرب يبحثون عن ملجأ للاستدفاء والنوم. تُقَدَّمُ لنا قهوة وخبز. أرتعد لأني أشعر أن أعصابي ستخونني. يذرني التّعبُ بلا صوت، ولا حيلة.

في ذلك اليوم، هرمنا جميعاً. وجه خطيبتي الباسم والسعيد لم يعد يفارقني.

في الأيام اللاحقة خضعنا للإجراء نفسه. يشاء الحظ أن ترتفع الحرارةُ درجات مئوية معدودة. يُصبح العقابُ مألوفاً. عند نهاية الأسبوع، يحضر الكومندان حمّادي ليُحدِّثنا عن أحداث خطيرة يمكن أن تطرأ في أي لحظة. «يجب أن تكونوا مستعدين! العدوُّ لا يُنْذِرُ، لكننا نحن ننتظره بقدم ثابتة! سنتلقّى قريباً زيارةَ ضابطٍ سامٍ ليحدِّثكم عمّا يمكن أن يطرأ. أما حالياً، فأولئك الذين لَم يصبروا للبرد وسقطوا ستُسنَدُ إليهم أعمالٌ شاقة لمدة شهر. انصراف!».

ما حكاية العدوّ هذه؟ توصف الجزائر في الصحافة بـ«البلد الشقيق»، يتبادل قائدا الدولتَين برقيات التهنئة في الأعياد، فما الغاية من اختراع عدوٍّ؟ ليشغلونا بلا ريب. يحتاج الجيش إلى هدف. ويبدو أن هدفنا الانتصار على الجزائر. لِمَ سأذهبُ لأقتل الجزائريين أو ليقتلني الجزائريون؟ العبثُ جزء من البرنامج.

حلَّ شهر رمضان. كيف سنستمرُّ في التدريبات، وحصص الرِّماية، والعقوبات المجانية؟ غير أن المشكل الآن هو مارسيل. يا لمارسيل! هذا الصاحبُ الظريف، الكتومُ، الذي يعرف مئات النّكات الفاحشة عن اليهود والعرب، والذي يتحدث بعربية دارجة بلكنة خفيفة تشبه

الكلام بشعرة فوق اللسان، مارسيل الطيب هذا سيجرؤ على مخاطبة الكومندان حمّادي وهو يستعرض الصفوف.

«سيدي الكومندان، أنا لا أصوم رمضان، يجب على المطبخ أن يضع في حسابه وجباتي الثلاث اليومية.

- من أنت؟

- الجندي مارسيل ب، رقم التسجيل 10362.

- أأنت يهودي؟ لم يكن ينقصنا إلا هذا!

- ليس خطئي سيدي الكومندان.

- ويردُّ، الوقح.

- أنا مواطن مغربي ويهودي. هذا موجود!

- أجل، أنا على علم بذلك. لن تقدِّم لي درساً في التاريخ!».

نُعجَبُ كلُّنا بشجاعته. لم يسبق لأحد أن تجرّأ على مخاطبة الكومندان بهذا الشكل. المفارقة أن كونه يهودياً يحميه. يعلم الكومندان حقّ المعرفة أن الملك يهتم عن قرب برعاياه اليهود. يخفض حمّادي من لهجته ويقول له:

«ستأكلُ، لكن ليس أمام الصائمين. ستذهب إلى المطبخ وستُقدَّمُ لك وجبتُكَ في زاوية معزولة. لا حاجة إلى أن يراك الآخرون وأنت تَزدرد...».

يشكره مارسيل ويلتفت نحونا ببسمة انتصار.

حياةٌ يوميّةٌ

نتلقّى الأمر من جديد بخياطة جيوب الملابس العسكرية التي حصلنا عليها مؤخّراً. توزيع الإبر والخيط. أخيطُ جيوبي. أُخفي فيها قبل ذلك قصائدي. مخبأ جيد. أصير خبيراً في الخياطة. أُنجزُ الأمر في لمع البرق. يأتيني الصِّحابُ بسراويلهم؛ يعدني صلاح بالراديو هذه الليلة. يمنحني آخَرُ علبةَ بسكويت اشتراها من راعٍ يحوم حول حقل الرماية على الرغم من كونه مُسَيَّجاً بالأسلاك الشائكة. نعطيه المال ويجلب لنا أشياء بسيطة.

يستعرضُنا الكومندان. يجب أن تكون رؤوسنا حليقة بعناية. الجيوبُ مخيطةٌ والمظهرُ منضبطٌ. يمرُّ بين الصفوف؛ يفحصُ بعصا الماريشال إن كانت خياطة الجيوب متقنة. إذا ولجت العصا في الجيب، يتلقى صاحبُه ضربتين حادتين فوق القفا. وُزِّعَت بعضُ الضربات. يرفع، بطرف عصاه، قبعتي التي تسقط،

يُمرِّرُها فوق رأسي، الذي لم أحلقه هذا الصباح بسبب دُمل. يتوقف عنده، يضغط عليه إلى أن يسيل الدم. أشعر بالألم. لا أتزعزع. أُفلِتُ من الضربات على القفا. أنحني وألتقط القبعة.

جَمَعَنا الكومندان ليعلن علينا نبأً، هذه المرة لا يتعلق الأمر بالحرب: «سيحضر قريباً ضابطٌ سامٍ لتفتيش المدرسة. انتبهوا، يجب ألا تشوبكم شائبة، القميص مكويٌّ، السروال نظيف والجيوب غير مخيطة؛ ولا كلمة واحدة. إذا كلَّمَكُم، تُلقون عليه التحية وتقولون «شكراً سيدي الجنرال». إذا ما غامر أحدكم بالحديث إليه عن أي أمر كان، سيكون حسابه معي؛ مفهوم؟ انصراف!».

تحسَّنَت القائمةُ في المطعم. ما دام الجنرال لم يزرنا بعد، فإننا نضمن أكلاً لا بأس به. يحب الضبّاط أن تتغذى القوات جيداً. يتحدث الجميع عن الزيارة المرتقَبَة. يعتقد البعض أن الأمر يتعلق بحيلة لوضعنا محطَّ اختبار. ذات مساء، يسمحون لنا بأن نسحب الخيط الذي كان يقفل جيوبنا.

يصل في اليوم الموالي الجنرال ادريس بن عمر. يحظى بشهرة في المدرسة. شخص خيّر. لا وجه شبه مع أوفقير، الذي أرسلنا إلى هذا العذاب. لا أزال إلى اليوم

أعتقد أن ادريس بن عمر، على ما يبدو، لم يكن على علم بالأسباب الحقيقية لاحتجازنا، بله بقصة ذلك العقاب والإصلاح المُقَرَّر من لدن أوفقير الذي كان يريد، باعتباره ديكتاتوراً جيداً، أن يعطينا درساً.

لأول مرة، نقضي النهار أيدينا في جيوبنا. متعة خاصة، بل إني أشعر للحظة بحنين غريب: رائحة البنزين التي ينفثها موكبُ الجنرال تجعلني أسافر. أتنفسها كأنها عطر. أربط بين البنزين وصوت المحرِّك والحرية. أغادر هذا المعسكر، أرحل بعيداً، أركب سيارة ليموزين وأقول للسائق: «انطلق! لا تتوقف قبل أن ترى البحر». أخفضُ الزجاج وأتأمّل المشهد، أنظر إلى الناس وأتنبّأ بحياتهم. يمدّني السائق بقارورة ماء معدني. أشربُ في كأس من الكريستال. الجو منعش. الجو لطيف. الحياة جميلة. تسير السيارة بأقصى سرعة لنَصِلَ قبل غروب الشمس. يجب أن أشاهد ظهور الشعاع الأخضر الشهير. إنه نادر جدّاً، لكن هذا يوم حظّي، فالجنرال رحل على متن الجيب؛ تنازل لي عن سيارته الليموزين الرسمية. الرفاهيةُ تَرَفٌ لا يتجاوز عتبة حلم يقظة.

في الغد، خياطة الجيوب من جديد. تُستأنف الحياة اليومية مثلما في السابق؛ طعام جد متوسط؛ انضباط

حديدي؛ تهديد بالعقوبة إثر أدنى خطأ أو أدنى إخلال بالقواعد. لا تحاول الفهم.

الشتاء يزداد قسوة. يصل إلى علم الكومندان أن واحداً منا يملك راديو قويّاً وأنه على تواصل مع الخارج. يُتَّهَمُ راعي بني ملّال المسكين بالتجسُّس، ويُحكم عليه بأقسى العقوبات. سبق أن رأيتُ ذلك في الصيف، سيُدفنُ جسمُهُ كلُّهُ، باستثناء الرأس الذي يبقى مُعرَّضاً لتقلّبات الطقس. يمكن أن يموت من البرد. غير أن صاحبي الراعي لا يقول شيئاً. يصمدُ، فهو إنسان معتاد على قسوة الفصول. يُقاد إلى خارج المدرسة، تحت حراسة جنديٍّ. في اليوم الموالي، عندما يُخرَجُ من الحفرة، يشعر بالخجل؛ بالَ وتغوَّطَ على نفسه. ذاك ما يُغضِبُهُ. يقول لنا: «البرد لا شيء، لكن أسوأ شيء أن يقضي المرء حاجاته من دون أن يستطيع لا أن يتحرك ولا أن يغتسل».

أما بالنسبة إلي، فلم تعد تصلني أخبار ريجيس دوبري الذي صار لي، نوعاً ما، رفيقاً افتراضيّاً. أفكر فيه دون أن أعرف لا وجهه ولا صوته. يوحِّدُنا تواطؤ بعيد، ولو أن مصيره أشد مأساوية من مصيري. يهمس في أذني أحدُ قادة الطلبة: «دوبري حُكِمَ عليه بالإعدام من لدن بوليفيا. قُضِيَ عليه». أشعر بالحزن. أتخيّلُ شابّاً، لا يكبرني في

السن إلا قليلاً، ثوريّاً، مستعدّاً للموت من أجل أفكاره.
أفكِّر في والديه.

التمرّد؟ إلا هذا. يشتغل معسكر الخوف وفق طرق مدروسة جيّداً. كلُ تمرّدٍ يمكن أن يتحوَّلَ إلى مذبحة ستُبَرَّرُ باعتبارها تطاولاً على أمن الدولة. تخلُّص مناسب من هؤلاء المتمردين الصغار؛ لن يصل الصحافةَ شيءٌ من ذلك؛ ماتوا لأنهم نظّموا تمرّداً مسلَّحاً؛ دفاع عن النفس. سيناريو تقليدي. قد يكون الكومندان حمّادي يحاول أن يدفعنا إلى تلك الحدود القصوى. نشعر أنه يودُّ لو يسيل الدم. قمعُ عصيانٍ سيجعله يحس أنه مفيد. لا علم لصحافة اليسار بما يجري. عَلِمَ بعضُ الأشخاص أن طلاباً شباباً أُرسِلوا إلى الجيش لأداء خدمتهم العسكرية. ليس في الأمر ما يدعو إلى الاستنفار أو الاحتجاج.

إسهالٌ عامٌّ. زُحارٌ بسبب الوجبة الأخيرة. لحمٌ فاسد. حمّى لدى البعض، تقيؤ لدى البعض الآخر، مغصٌ لدى الجميع. نضحك من الأمر. نمزح. كلنا سواسية في ألمِ تسمُّم عامّ. على الأقل في اليوم الموالي، لا نخرج من المعسكَر. يوزِّعُ علينا المستوصفُ أقراصاً

نبتلعها. لم تعد لدينا شهوة في الطعام، وهذا في حدّ ذاته شيء جيد.

على الرغم من مادة البروميد، قفز اثنان من أصحابنا فوق السور ليلاً ليذهبا عند العاهرات. في صباح اليوم الموالي، استدعاهما الكومندان، الذي قال لهما: «أما العقاب فقد أنزلتُماهُ بنفسيكما، جميع عاهرات هذه المنطقة مريضات؛ لن أعاقبكما، سأنتظر أن أراكما عاجزين عن التبوّل».

تلقّى المستوصفُ أمراً بألّا يُعالَجا. بالفعل، أُصيبَ الاثنان بسيلان مؤلم. سيحتفظان به إلى أن يُطلق سراحهما. في انتظار ذلك، تعقَّدَ المرضُ. العقابُ رهيب.

أُستدعى إلى مكتب الكومندان. أَصِلُ، أُلقي التحية، أبقى في وضع انتباه.

«هكذا، أنتَ تكتبُ أشعاراً!

- أجل، سيدي الكومندان.

- قرأتُها، لم أفهم منها شيئاً. من هو أورفيوس هذا؟

- شخصية من الميثولوجيا، شاعر وموسيقي... حكاية قديمة جداً.

- آه، تكتب أشعاراً عن أشياء من عصر آخر. طيب، أُعيدُها لك، إنما يجب أن تكتب أشعاراً عن وطننا الحبيب، أُعطيكَ فكرةً، لِمَ لا تُعِدُّ لنا قصيدة جميلة عن رايتنا الرائعة لعيد العرش المُقبل. أترى هذا اللون؟ إنه أحمرُ دمنا، وهذه النجمة الخضراء تراثُنا الفلاحي، ثروتنا التي كلُّ مغربيٍّ مستعد للقتال والتضحية بحياته من أجلها. هذا هو الشعر، بينما تلتجئ أنتَ إلى حكايات بعيدة ومن دون أهمية».

أقول له بتلعثم إن الشعر لا يُتَحكَّمُ فيه. تُعَبِّرُ ملامحُه عن الاشمئزاز ويشير لي بالانصراف.

كُسرت نافذةٌ أخرى، هذه المرة في نادي الضبّاط. يُقرِّرُ الكومندان عقاباً جماعياً من نوع جديد: كلُّ واحد يجب أن يَشِيَ بشخص ما، مَنْ يَمْتَنِعْ يذهبْ إلى السجن، سيقضي به أياماً بعدد حروف اسمه. أنا، عشرة أيام. لم أَشِ بأحد. ها أنا في زنزانة مع شخصَين آخرَين لا أعرفهما واللذين لا يعرفان حتى سبب وجودهما هنا.

أفرزت عمليةُ الوشاية نتائج مدهشة: من بين المعاقَبين الـ93 الذين هم نحن، لم يَشِ بشخصٍ ما سوى عشرين. لا أريد أن أحكم عليهم، كل واحد يفعل ما يناسبه. علّمني والدي أن تلك أشياء لا تُقترف. حدّثني

عن مصير المناضلين من أجل استقلال المغرب الذين وُشِيَ بهم لدى الشرطة الفرنسية، وكيف عُذِّبوا أو أُرسِلوا إلى المنفى. حدّثني أيضاً عن اليهود الذين وُشِيَ بهم في فرنسا من لدن جيران، وأقرباء، أناس من دون أخلاق، ولا كرامة. في أسرتنا، قال لي موضِّحاً، لا نَشي بالآخرين.

الكومندان غاضب. فشلت عمليتُه، بل إنه يصف الوشاةَ العشرين بالخونة. بعد ثلاثة أيام، يأمر بإطلاق سراحنا ويجعلنا نستأنف التدريب من أجل مناورات مُقبلة.

إنه الربيع، السماء ذات زرقة لطيفة، الجو منعش، الجبال بيضاء والكومندان رائق البال. ارتقى حديثاً إلى رتبة ليوتنان كولونيل. أعلن علينا ذلك بنفسه وقرّر للاحتفال بذلك أن يمنحنا يوماً رخصةً. للمرة الأولى نستطيع أن نخرج من المدرسة والمشي بحرية في الشارع. يقطن والداي خمسمئة كيلومتر بعيداً عن هنا. يستحيل السفرُ لمعانقتهم. تبدأ الرخصةُ في الساعة الثامنة صباحاً وتنقضي في منتصف الليل. كل تأخر سيُعاقَبُ بشدة. أما الفرار، فحكمه الإعدام. يُنذرُنا ليوتنان بلطف: «لا تحاولوا الهرب، وإلا فإن أشقاءكم وآباءكم هم من

سيدفعون الثمن غالياً». يذكر لنا حالة العَمْري، سرجان فرَّ من الجندية ليتبع امرأة أحبها بجنون. قُبِضَ عليه، وُضِعَ في زنزانة القبو، وحوكِم من لدن محكمة استثناء لأن المغرب كان حينئذ في حرب مع الجزائر. نُفِّذ فيه حكمُ الإعدام؛ تحدّثت عنه الصحافة. أُعدِمَ من أجل العِبرة.
أكتفي إذاً بجولة في مدينة أهرمومو. في الحقيقة قريةٌ لا يوجد بها شيء. أبحث عن مخدع هاتفي. لا وجود له هنا. يوجد مكتب بريد، لكنه أُقفِل. يُقالُ لي إن البقّال حمزة يملك هاتفاً. أدفع أيَّ ثمن لأسمع صوت أمي. حمزة في المسجد. أنتظره رفقة أحد أصحابي. ينصحنا جارُهُ أن نذهب في طلبه، لأنه أحياناً ينام بعد الصلاة. ها نحن في المسجد، الأحذية العسكرية بين أيدينا، ونحن نسأل عن البقّال حمزة. بالفعل، ينام مطمئنّاً وقد أسند رأسه إلى سارية. أوقِظُهُ بلطف. ينتفضُ معتقداً أن الشيطان من يُزعزعه.

«ماذا تريد؟ ألا يمكن للمرء أن يظل بسلام؟».

أتوسَّلُ إليه أن يرافقنا لأستعمل هاتفه.

«لا يعمل. لم أدفع الفاتورة، لصوص حقيقيون. إذاً أنا، الهاتف، انتهى. انْصَرِفا بسلام».

نعود حزينَين. نأكل طاجين لحم خروف بالزيتون والليمون المخلّل. المطعم ليس ببالغ النظافة، غير أن

الطاجين المطهوّ على الفحم لذيذٌ. نسلكُ، وقد شبعنا، طريقَ العودة. تغمزنا بعضُ النساء. يميلُ صاحبي إليهنّ، أُمسكُهُ، إنهنّ بغايا لم يسبق لهنّ أن رأين طبيباً. يركبه الخوفُ ونعود أدراجنا إلى المدرسة مرتاحين.

في الغد، ينادي رؤساء الفرق باللائحة ويقدِّمون التقرير للكومندان: جميع الجنود حاضرون!

في ذلك اليوم نُلَقَّنُ تفكيكَ البندقية الأساس Mas 36 وإعادة تركيبها. للمرة الأولى في حياتي أكتشفُ كيف يترابط مختلفُ أجزاء هذا السلاح. ثم نَمُرُّ إلى المسدّس. أبتسم وأنا أتصور همفري بوغارت يُمثّل بهذه الآلة. بعد هذه التمارين، يعصبون عيوننا لنعيد التفكيك والتركيب. أفشلُ. يقول لي الليوتنان: «آه، هذا الشاعر الذي لا يعرف كيف يتصرف!». لا أقول شيئاً. هذا يُضحِكُ الآخرين. أخجلُ. هذه ضربة من الكومندان الذي يريد أن يجعلني موضوع سخرية.

الجمعة، هو يوم الرماية والكُسكُس. الرصاص فارغ. كلُّ طلقة تَرُجُّ جميع أعضائي، خصوصاً الكتف، وتجعلني أَطْرَشَ لدقائق معدودة. تنتشر شائعاتٌ: يبدو أننا نُحَضَّرُ لتدخّل سريع في الحدود الجزائرية. تتردّدُ في ذهني فكرةُ أن الجنرال أوفقير يسعى إلى القضاء علينا بطريقة

«وطنية». تحدّثت الصحافةُ الفرنسيةُ، طوال السنة الماضية، عن مشاركته في اختطاف المهدي بنبركة وقتله. اصطناعُ حرب صغيرة سريعة مع الجارة وذبحنا بالمناسبة ذاتها. أرتابُ. غير أن الذين أدعوهم «السياسيين» مقتنعون بذلك. خصوصاً أحدُ قادة النقابة الطلابية في المستوى الوطني. عنده حجج:

«نحن معتقلون سياسيون، على الرغم من أننا لا نملك جميعاً الوضعَ نفسَه. نمثِّلُ خطراً بالنسبة إلى النظام. إن ما عشناه هنا، ما صنعه ولا يزال يصنعه الجيشُ بنا، ليس من صالح القيادة أن يُعرَف. الجيش ليس أداة قمع. يملك سمعة يحافظ عليها. لذلك فإن اختفاءنا هو من قبيل المعقول. سيجعلون منّا أبطالاً سقطوا من أجل الوطن وسنُقلَّدُ أوسمة بعد رحيلنا. التوترات مع الجزائر حقيقية. كل شيء يمكن أن يحدث».

أشعر فجأة بالبرد، كأن ريحاً متجمدة هبّتْ لتأكيد فرضيات هذا الرجل الذي يُتقِنُ الحديث. أقول لنفسي إن كل شيء ممكن، لكن لا يمكن القضاء على 93 شخصاً في هجوم واحد. غير قابل للتصديق. أُردِّد بداخلي: ممكن، غير ممكن، معقول، غير معقول... كل شيء يمكن أن يحدث... لماذا لا نملك أي معلومة عن مدة احتجازنا؟ طبيعي، بما أننا لم نُحاكَم، بما أن أي هيئة

رسمية لم تُقرِّر في مصيرنا. إذاً، كم من الوقت تدوم الخدمة العسكرية؟ هذا يرتبط بالبلد. بما أن المغرب لم يُحدِث الخدمة العسكرية قبل اعتقالنا يستحيل التكهن بتاريخ التحرير.

أنا جائعٌ. نحن جائعون. الطعام مناسب لكن غير كافٍ. ثم إن علينا أن نُنفِّذ جميع الأوامر جرياً. أمس، أعاد البعضُ منّا طلاء منزل الكومندان. اليوم، نحن مُعَرَّضون للشمس. يجب أن نبقى في وضع ثابت وألا نتكلم. أتصور أن القائد الكبير يحفر رأسه كل مساء ليعثر على طريقة جديدة للإساءة إلينا. أصمدُ وأنا فخور بذلك. يتسبّبُ لي الجوعُ في صُداع الشقيقة. أصمدُ وأنا أفكر في مرعى تكسوه الورودُ وفي فراشات من جميع الألوان.

تحريرٌ نعم، تحريرٌ لا

5 يونيو 1967: أُعلِنت الحربُ بين إسرائيل والبلدان العربية. حالة استنفار قصوى. استدعاء في الساعة السادسة صباحاً. لدى القائد الكبير ما يقوله لنا. لم تصل الحرارةُ بعد إلى ذروتها. ننتظر. يصلُ مرتدياً بدلة الحرب، نظارات سوداء، العصا تحت ذراعه. كأنه سيُمثِّلُ في إعلان إشهاري، من قبيل «انخرطوا في الجيش، تمتلكوا العالم». يتحدّث: «العدو الصهيوني قد ضرب. أشقاؤنا في مصر، وفي سوريا، وفي الأردن يقاتلون بشجاعة. علينا أن نكون جاهزين في أي لحظة لِنَمُدَّ لهم يد المساعدة. على كل حال، اعلموا أننا في حالة حرب. إذاً، كونوا على حذر! انتباه! راحة! انتباه! راحة!».

يُستدعى مارسيل إلى مكتب الليوتنان كولونيل.

يُطلَقُ سراحُه. أمرُ الرباط. الوقت ليس أوان

المخاطرة بوقوع حادث ليهودي. يجمع مارسيل أغراضه المدنية، يضعها في حقيبة ويسلِّمُ علينا واحدً واحداً. يقول له البعض: «أنت محظوظ»، والبعضُ الآخرُ: «عُدْ سريعاً»، بل هناك واحد لا يتورع عن اغتيابه: «أُطلِقَ سراحُهُ ليلتحق بالقتال إلى جانب إخوانه الصهاينة». لم يَرْتَبْ مارسيل أبداً في هويته المغربية، العربية واليهودية. ينتمي إلى آلاف الأُسر اليهودية التي عاشت دائماً إلى جانب المسلمين. لكنه حدّثَنا مرةً عن أشخاص من الأجهزة السرّية الإسرائيلية زاروا والديه لحثِّهم على الهجرة إلى إسرائيل. غير أن والده، المُنَجِّد أباً عن جَدّ، رفض. هدَّدَهُ العميلُ بالانتقام. أجابهُ: «أنا بخير هنا، ليس لي ما أصنعه مع بولونيين وأميركيين لمجرد أننا يهود». أعاد العميل الكَرّةَ لكن والد مارسيل صمد.

بعد أسبوع، تُرفَعُ حالةُ الاستنفار. هزيمة نكراء للعرب. لا تعليقات في الصفوف. صمتُنا علامة على يأسنا. نتسلَّقُ جبلاً مُحَمَّلين مثل البغال وعلينا أن نتجنّبَ طلقات الأعداء. لا ينضبط القبطان للعملية. يحمينا، يَدُلُّنا على مكان لنختبئ فيه ونرتاح. ليس سعيداً بالانتماء إلى أولئك الذين عُيِّنوا لعقابنا. سنعلم فيما بعد أنه حصل على تنقيط سيّئ وعُيِّنَ في الصحراء.

نُقَرِّرُ أن نطالب بالزيادة قليلاً في الطعام. لكن كيف الوصول إلى تحقيق مرادنا؟ يطلب واحد من الذين ندعوهم «السياسيين» رؤيةَ قبطان مقرّب من الليوتنان كولونيل. وعدٌ بالتحسين، لكننا لا نرى تحسُّناً. «في الجيش، لا نحتج، لا نطلب، نطيع»، يُرِدِّدُ علينا الليوتنان الذي يعلِّمنا استعمال الأسلحة. لكننا نرى أنه غير متفق في داخله مع ما يقول. لِتستمرَّ إذاً الوجبات الهزيلة. يطرح حليم، أحد السياسيين، فكرةً: أن نسألَ الراعي الذي يسرح قطيعه خلف أسلاك حقل الرماية إن كان يوافق على أن يبيعنا خروفاً. قَبولُ الراعي يُفاجئنا كثيراً. يشرعُ حليم في جمع المال. كلٌّ يُعطي ما في وُسعه. يتجمّعُ قدرٌ لا بأس به. يُرينا الراعي الخروفَ. لكن ما العمل الآن؟ الأمر بسيط، يتكفّل هو بكل شيء: سيذبحه، ويُعِدُّهُ ثم يُسَلِّمُه لنا يوم الجمعة مشويّاً ساخناً! يأخذ المال ويختفي طبعاً إلى الأبد.

تنمو الحكايةُ إلى أذني القائد الكبير. ضحك من ذلك، على ما يبدو، إلى أن كاد يختنق. على الأقل، شَغَلَنا هذا الفصلُ مدَّةً. لم تتغير الوجبات. طلب حليم من القائد الكبير أن يُرَخِّص له بالذهاب في طلب الراعي. ممنوع. «سيعلِّمُكُم هذا ألا تثقوا في أيٍّ كان!». صَيَّرَنا الجوعُ سُذَّجاً.

نحن في يوليو. انصرم عامٌ على احتجازي. أمرٌ لا يُحتَفَلُ به. ليس هناك ما يدعو للاحتفال، ما خلا كوننا أفلتنا أحياء من الحماقات المَرضية، وحاذينا الموت مرات عديدة، ورأينا رجالاً يزحفون مثل الحيوانات أمام ضابط ساديٍّ، ورَصَدْنا مثالبَ بعض الرؤساء، وأننا لا نعلم إلى حدّ الآن إن كنا يوماً ما سنخرج من هذا السجن الذي لا ينطبق عليه اسمه. لا أخبار عن أُسَرِنا. غير أن القائد تفضَّل علينا برخصة الكتابة إلى أهلنا؛ رسائل تُقرأ قبل أن تُرسَل. رسالتي بسيطة:

والدي العزيز، أرجو أن تصلك هذه الرسالة وأنت في صحّة جيدة، وأن تُطَمئِنَ والدتي وتحملَ إليكم أخباراً طيبة. هنا كل شيء على ما يُرام. نمارسُ الرياضة، نأكل جيداً، ونتعلّمُ أن نحبَّ وطننا وأن ندافع عنه. لا تقلقوا أبداً. الجميع يعتنون بنا كثيراً. لا يخصُّنا سوى النظر في وجهكم العزيز. حفظكم الله وأطال في عمركم.

ابنكم الذي نال رضاكم.

أعرف أن أبي من الذكاء بحيث يقرأ ما بين السطور. وعلى كل حال، يجب ألا أشغل باله.

شهر بعد ذلك، أتوصل برسالة من أبي احتفظتُ بها بعناية لروعة الوثيقة. يُخبرني، بعربية فصحى رفيعة، بحاله ويبلغني رضاه عني ويخاطبني بلهجة سيِّدٍ كبير لا يستطيع الإفصاح عن مشاعره:

بسم الله والصلاة على رسوله عليه السلام.

ابننا الغالي، فخرنا، وشموخنا!

منذ أن غادرتنا، ونحن نعلم مدى نفعك للوطن الذي نحبُّهُ جميعاً، خصوصاً بفضل ملكنا أَيَّدَهُ الله وأطال في عمره ونصره على جميع أعدائه.

ابننا العزيز. نحن بخير وفخورون باختيارك لتكون في خدمة الله، والوطن، والملك! والدتُكَ بخير وإن كانت قلقة لأنها لا تراك كثيراً، لكنها تحدسُ أنك ستأتي قريباً لزيارتها. ينبغي أن أقول إن البيت فارغ من دونك، خصوصاً بعد سفر أخيك إلى فرنسا من أجل الدراسة. نحن وحيدان مع المرأة التي تساعد والدتك في أشغال البيت.

أرجو أن تجدكَ هذه الرسالة بصحّة جيدة؛ نحن نفكر فيكَ وننتظرك، ابنَنا العزيز.

حفظكَ الله ورعاكَ؛ حفظ الله ملكنا ونصره. عاش الملك، عاش المغرب!

والدكَ، العبد المتواضع لله.

أقرأها وأعيد قراءتها. أَحُلُّ شفرتَها. أبي على علمٍ بالقمع ومكائد العسكريين. القراءة بين السطور. الإحالات إلى الملك موجَّهةٌ إلى الرقيب الذي سيقرأ الرسالة؛ أعرف أن والدي لم يحبّ يوماً هذا الملك الذي يخشاهُ الجميعُ من دون أن يحبّوه حقيقة. أفهمُ أن أمي، في حقيقة أمرها، مريضة. أخفي الرسالة تحت الوسادة معتقداً أني سأرى والديَّ في الحلم. غير أني، في الليلة الأولى، إنما أحلُمُ بآفا غاردنر. أشتاق إليها. صوتها الرزين، عيونها السوداء اللامعة، هيئتها، وقاحتها، أشتاق إلى كل شيء فيها. آخر مرة شاهدتُها كانت في فيلم **الكونتيسة الحافية**، بل إني أشتاق إلى كل ما يَمُتُّ إلى السينما، هوايتي، من قريب أو من بعيد. يعذّبني الانقطاعُ عن ارتيادها. الغريب أني شهوراً قليلةً قبل اعتقالي شاهدتُ **تَلُّ الرجال الضائعين** لسيدني لوميت. فيلم يحكي كيف يعامِلُ ضابطُ صَفٍّ ساديٌّ وشديدُ الصرامة مجموعةً من السجناء العسكريين بقسوة كبيرة داخل سجن لا يكون الخارجون منه دائماً أحياء. قلتُ لنفسي حينئذ، متأثراً بقوةِ ذلك الفيلم شبه الوثائقي، ولكن الأداء فيه رائع من لدن ممثلين ذوي بُعدٍ جسمانيٍّ قويّ، إن ما يحدث في ذاك السجن لا يُتصوَّر. بيد أني أعيشُ منذ عامٍ محاكاةً جدّ حقيقية لذلك الفيلم. تنقصُ الكاميرا.

ثم ذات ليلة، أرى والديَّ يلبسان الأبيض كأنهما عائدان من مكّة. أمي تبكي، وأبي يشير لي بالهدوء. يتكلمان غير أني لا أسمع صوتهما. كلما اقتربتُ منهما ابتعدا. الأبيض مشؤومٌ، إنه لون الحِداد. سأعلمُ فيما بعد أن نادية، ابنة أخي ذات الثمانية عشر ربيعاً، ماتت مختنقة بالغاز وهي تستحمُّ.

أكثر من عام من دون موسيقى. من يكترث لذلك؟ لا يشكو غيابَها أحدٌ ممّن حولي. أتحدّثُ عنها لكني لا أجد آذاناً صاغية. ألوذُ بذاكرتي وأُصغي بتركيز إلى أولى تحليقات جون كولترين. أستعيد بعد ذلك أغنياتٍ لليو فري وجون فيرات. أبذلُ مجهوداً خارقاً لأستردَّ الإيقاعات، والتناغمات، والقوافي، والكلمات. أتذكّرُ قصائد أراغون يؤديها مُغنِّيايَ الأثيران. أُخطئُ، لستُ في تمام تركيزي، تبتعدُ الأغاني بصمت مطبق؛ لم تعد سوى ذكرياتِ ذكرياتٍ. أحاول أن أستعيد مشاهدة أفلام. أُركِّزُ وأقول: «انطلاق». إنه فيلم مارسيل كارنيه **أطفال الجنة**. تتوالى الصور لكن من دون صوت. أمرٌ غريب. فجأة أتعرّف إلى صوت جون لويس بارولت شديد التميّز. ثم لا شيء. يبتعد الفيلم. الشاشة تامة البياض وأنامُ.

إشاعات. حمّادي سيرحل. حمّادي حصل على ترقية، لن يعود مُكلَّفاً بمعاقَبي الملك، هذه مهمة منحطة. حمّادي مريض، يبدو أن الملك أرسلهُ إلى مكّة للحج. حمّادي يتزوج. حمّادي عُيِّنَ مستشاراً عسكرياً في سفارة المغرب بواشنطن. حمّادي في السجن. الخلاصة، تنتشر الإشاعاتُ وتتغيّر كل يوم. الأكيد أن حمّادي قد غادر أهرمومو. لم نعد نراه. ليست هناك أنوار لا في مكتبه ولا في مسكنه. لقد غادر. نستشعر غيابه. لم يعد الجنود يسيرون جرياً. هذه علامة تراخٍ. الرعبُ غادَرَ. حمّادي نودِيَ عليه من لدن أوفقير: ترقيةٌ أم عقاب؟

وصل من سيعوِّضُهُ ونحن نائمون، في عزِّ الليل. يتعلق الأمر بالكومندان اعبابو ومساعده لاجودان عَقّا.

تجمُّع في الساعة السابعة. يمرُّ اعبابو بين الصفوف، يتبعهُ عَقّا. مزاجهما سيّئ. لا ابتسامة، لا كلمة. إنهما متوتران. ترقية أم عقاب؟ كلاهما على ما يبدو. انتقلا من معسكر الحاجب إلى مدرسة الضبّاط. لكن عليهما الاهتمام بالمعاقَبين. ليست ترقية حقيقية. سنعرف حقيقة الأمر حالاً. يتحدث اعبابو:

«ها نحن معاً مرة أخرى. هذه المرة يجب أن يكون الإصلاح كاملاً. من دون ضعف، من دون تراخٍ، سأكون

بلا رحمة. لم يكتمل تكوينكم بعد. الكومندان حمّادي، عفواً، الليوتنان كولونيل حمّادي نودِيَ عليه من أجل أعمال أخرى. لاحظتُ تراخياً في الصفوف. هذا غير مقبول. إذاً، الجريُ للجميع، سنجري، ستجرون ساعة كاملة من دون توقف. أترككم مع لاجودان عَقّا. انتبااااه! راحة، واحد اثنان، واحد اثنان، هيّا بسرعة أكبر، انطلق...».

يختفي اعبابو. يصيح عَقّا ويوجّه بين الفينة والأخرى ضربة عصا لواحد منا. ضربة مجانية لا غرض منها سوى أن يُذكِّرنا بكونه يحب أن يضرب وأن يُعنِّفَ. يصيح: «مثلما يقول مُعَلِّمي الكومندان اعبابو «لا رحمة بالضِّعاف». جميعُكُم ضعاف، خِرقٌ!».

نبدأ نتحسّر على حمّادي. لأن اعبابو يبدو مسكوناً بالغيظ، والنقمة بل الضغينة. ليس سعيداً بوجوده هنا ويُفرغُ كلَّ غضبه علينا. يحتاج إلى ذلك. الغريب أنه لم يذكر الملك. قد يكون نسيَ. نعدو، نعدو، خلفنا عَقّا بعصاهُ. ينبض القلب بقوة. هذا ليس أوان الاستسلام، والسقوط. يجب أن أصمد. المدخِّنون هم أول من يتهاوى، ما يسمح لعَقّا بأن يركلهم. ينهضون ويسقطون من جديد. يسبُّهُم، يصفهم بالشواذ، بالضِّعاف...

نهارٌ قاسٍ. بعد الجري، الخروج من أجل مناورات مرتَجَلة. لا يتعلق الأمر في الحقيقة سوى بتشغيلنا وإتعابنا. نستعيد عادات المعسكر القديمة. عَقّا هائجٌ، أحد السرجان شيفْ لم يُبدِ له الاحترام اللازم (نسي أن يُلقي عليه التحية)، يُذِلُّهُ أمام الجميع. بعد ذلك بقليل، يَجمعنا ليوتنان وينصحنا ألا نتكلم. «لم تروا شيئاً، ليس لكم ما تحكونه».

منذ عودة اعبابو قُدِّمَ موعدُ الاستيقاظ بساعة. في الساعة الخامسة، نكون على أهبة الاستعداد. توتُّر مستمرٌّ يُذكيه عَقّا. ما الذي قد يصنعه بنا؟ يتساءل لاجودان السوء. يشرح لنا: «لقد علمتُ أن الفرقة D خرجت إلى الطبيعة لتقوم بنزهة. أتتصوّرون؟ نزهة! إذاً قرّر الكومندان أن تذهبوا لاصطيادهم بينما هم يمرحون. سيعلِّمُهم ذلك ألا يتراخوا. توزيع الأسلحة، حقيبة الظهر، الخوذة، الانطلاق بعد أربع عشرة دقيقة».

نغادر المدرسة جرياً، الوجهةُ سهلٌ في الجهة الأخرى من الجبل. الجو حار. من دون استراحة. نعدو، عَقّا في المقدِّمة. لا يتعب. وهو يسير، يلقي علينا خطاباً يريده محفِّزاً:

«الوطن في خطر، جلالة الملك في خطر، يجب التدخّل، الإسراعُ بإفشال المؤامرة. هيّا، بينما يمرحون

ويتناولون الأطباق اللذيذة ويشربون ما لَذَّ وطاب، سنفاجئهم، لا تتردّدوا، أطلقوا النار عليهم، نحن في حرب، لا خيار لنا، هيّا، واحد اثنان، واحد اثنان...».

أتساءلُ: هل هو مجنون؟ لا أقول شيئاً وأعدو. بندقيتي ثقيلة، حقيبة الظهر ثقيلة، تجعل الحرارةُ كلَّ شيء مُتعِباً. كيف يمكن لفرقة من المدرسة أن تجرؤ على مهاجمة الملك؟ هذا هذيان. أجل، عَقّا مجنون فعلاً وخطير. أظلُّ على حذر. عندما نصلُ مكان النزهة، لا وجود لأحد. مزحةٌ. عَقّا غاضب. تلقّى معلومةً خاطئة. يحاول أن يتخلَّصَ من الوضع:

«هذه واحدةٌ من طرق تحفيزكم للوصول إلى الهدف. أرجو أن تكونوا دائماً على استعداد لإنقاذ الوطن». يصيحُ: «ردِّدوا بعدي «**الله، الوطن، الملك**»».

نُردِّدُ بآلية هذا الشعار المكتوب في كل مكان فوق جدران البناية.

استراحة لربع ساعة، العودة إلى المدرسة. في الطريق أبحث عن مصدر سلطة عَقّا، ليس سوى لاجودان وسلطتُهُ أكبر من سلطة قبطان. ربما هو مدين بحياته أو بمسيرته المهنية لعبابو. هذا الأخير يُمسكُ به وفي الوقت نفسه يضع فيه كل ثقته. لا بدَّ أن عهداً بينهما، شيئاً مُوقَّعاً بالدّم.

الأيام الأولى من أكتوبر 1967. الجبل جميل، تصمدُ الأشجارُ، ثابتة. السماء ذاتُ زرقة خفيفة. أسمعُ صوتَ محرِّك ديزل لحافلة. أحبُّ هذا الصوتَ الذي يُذكِّرني بالرحلات بين طنجة والدار البيضاء، بين فاس وطنجة. مرة أخرى أجدني أشمُّ رائحة البنزين الكريهة تلك، التي تُسكِرُني خارج كل منطق. أُفكِّرُ في تنقلاتي خلال بداية تلك السنة الجامعية. أتخيّلُ أستاذَنا في الميتافيزيقا م. شونو وهو يشرح لنا نصوصاً لنيتشه، هوسَهُ بكانط، تحليقاته الغنائيةَ عندما يتحدث عن هايدغر. كلُّ ذلك بعيد. لديَّ ذكرياتٌ غير أني عاجزٌ عن رصف جملتَين من الاستدلال الفلسفي. من أثر هذا الوسط أنه يُبعدنا عن العالم، عن الذكاء، عن البصيرة، أن يجعلنا غرباء عن الروحانية، عن المعرفة وتبادل الأفكار. هنا، لا وجود لأفكار، مجرد أوامر متصاعدة البلادة مع شيء من الوحشية العابرة. هنا، لا يُرحَّبُ بالشعراء والفلاسفة، لا يُتَصوَّرُ وجودُهُم، مقصيّون. ينحطُّون بنا إلى أسفل دركات الغرائز، إلى حصّتنا البهيمية، الحيوانية، اللاواعية. فعلوا كلَّ شيء لِيُفرِغونا ممّا يَحُضُّ على التفكير. أُجاهِدُ نفسي في الليل كي لا أصير مثل جيراني الثلاثة في الحجرة الذين يتصرّفون كعسكريين آليين. يَقبلون بكل شيء من دون تردّد. كأنما استودَعوا دماغَهُم

خزانةَ محطّةٍ نائية. إنهم هنا، فرحين بما صاروا إليه، يقضون وقتهم في المزاح أو في الاستعداد ليصبحوا جنوداً طيّعين تحت إمرة الكومندان. لا مجال لخذلانه. أنا وحيد. لا أجد أحداً أُفضي إليه، أتحدّثُ إليه، فأتحدّثُ إلى نفسي وأخشى أن أصير بدوري مجنوناً. وقد جُنَّ رشيد بالفعل، أستاذ سابق في الرياضيات. حبسوه وحيداً في حجرة، يضرب رأسه في الجدران. رجل طيّب، نحيف جدّاً، رقيقٌ وكتوم. لا أعلمُ كيف تدهورت أحوالُهُ فجأة. ذات يوم استيقظ، امتنعَ عن الأكل. صاح عَقّا: «يريد أن يقوم بالإضراب عن العمل والطعام؛ هنا لا وجود للإضراب؛ سأطحنه إلى أن ينسى اسمه. . .». هذا بالضبط ما وقع. لم يعد رشيد يعرف لا اسمه ولا أين يوجد؛ ينظر إلينا مُنْهَكاً ثم يجلس على الأرض ولا يتحرك. ينكمش على ذاته ولا ينبس ببنت شفة.

أفكر في خطيبتي السابقة التي لا بدَّ أنها تعيش حبّاً مثالياً مع شابٍّ طليق وثَرِيٍّ. لا أؤاخذها على ذلك، غير أني أتألَّمُ عندما تَغمرُ صورتُها أفكاري. بلى، أؤاخذها، أكرهها، أمقتُها. امرأة جميلة، متمردة، وقحة، متميِّزة، مثلما يقول شقيقي. هل سأسعى إلى رؤيتها من جديد إذا ما أُطلِقَ سراحي يوماً ما؟ لا أدري. لم يسبق أن رأينا حبّاً ينبعث بين اثنين بعد مصارحة. إنها قصة منتهية. يجب

نسيانُها، نسيانُ كل شيء. أُخبَرُ أن رشيداً أُرسِلَ إلى بيته. هل يستردُّ عقله بين أسرته؟ بلا ريب. يزعمُ بعضُهم أنه ادّعى الجنون ليُفلِتَ من هذا السجن. كل شيء ممكن، نعيشُ في عالمٍ حيث لا شيء يعمل بشكل طبيعي. الجنود مخدَّرون، والرؤساء نصف مجانين. هم أيضاً معاقَبون.

عَقّا متوتِّرٌ، يذهب ويجيء يداه خلف ظهره. اعبابو غير راضٍ. حكاية الهجوم المفاجئ لم تُعجب الكومندان. نحصل على فُتات الأخبار من مستخدمي المطعم. تسرحُ آذانُهم في كل مكان.

يُزعَمُ أن شيئاً ما يُحَضَّرُ له، تنقيلٌ، مناوراتٌ أكثر قسوة، رخصةٌ لأيام عديدة، الكومندان يتزوج أو عَقّا يُعيدُ زوجته إلى البلدة... الجو غريب. السماء رمادية. يُشبه الخريفُ شتاءً مبكِّراً. يسود البرد. عضَّ كلبٌ سرجان أُرسِلَ إلى المستشفى في الرباط. خرج عَقّا مع مجموعة من الجنود لقنص الكلاب. قَتَل عدداً منها. يُحكى أن بعض العاهرات قُمْنَ بزيارة لضبّاط شباب. علمنا بذلك لأن ليوتنان أصيب بسيلان خطير. أُرسِلَ بدوره إلى الرباط. اعبابو غاضب. القيادة لا تردُّ. يشعر أنه معزول. ها هو يستدعي «السياسيين» للعشاء في مسكنه. هم ثلاثة، جميعهم منتسبون إلى أحزاب يسارية. جدِّيون، ويؤمنون بجدِّيتهم، ويعتقدون أن في إمكانهم أن يُعلِّموا الكومندان

شيئاً ما. سُذّج. يُخبروننا، بعد انتهاء العشاء، أن اعبابو يساريٌّ، أنه قد اعترف لهم باشمئزازه من اضطراره للقيام بوظيفة السجّان. صَدَّقوهُ. اختبرهم. لم يفطنوا إلى كونه أذكى منهم، وأكثر حصافة. أستنتجُ من ذلك أن اعبابو شديد التعقيد ويجب الاحتياط منه. غير أني لستُ صاحب كلمة مسموعة. ما أنا إلا مناضل من القاعدة، طالبٌ يؤمن بالعدل والحقّ. يبدو أنه يحتفظ في بيته بصورة لأوفقير موَقَّعةٍ مثلما يصنع المشاهير. أوفقير! يا للهول! يُقالُ إن زوجته رائعة الجمال وإنه يتقاسمها مع الملك. تُقال أشياء كثيرة... من ذا الذي يستطيع أن يتحقّق من صحة كل ما يُحكى؟ لا أراني أسأل الجنرال أوفقير بلهجة جادّة إن كانت زوجتُه عشيقةَ الحسن الثاني. تجعلنا الوحدةُ نفكرُ في أمور لا يصحُّ ذكرُها. ما الذي يعنيني أنا من أمر زوجة ذلك الجنرال صاحب سمعة القاتل؟ لا شيء. من الأحسن إهمال الأمر. ولكن، لو كنتُ إنساناً أعلى، لأجلستُهُ فوق كرسيٍّ وحقَّقتُ معه حول مسؤوليته في اختفاء المهدي بنبركة.

ابتداء من منتصف نوفمبر، تبدأ إشاعاتُ تحريرنا تروجُ بقوة. الطبيب الذي يزورنا كل جمعة هو مصدر المعلومات الأدقّ. الدكتور نُوري رجل من الشمال ينحدر

من أسرة فقيرة. وحده الجيش اقترح عليه منحة لدراسة الطب. هكذا أصبح طبيباً عسكريّاً. يُخبِرُ أحدَ «السياسيين» أن عقابَنا انتُقِدَ من لدن أُناسٍ رفيعي الرتبة في قيادة الجيش، بل إن عراكاً نشب بين ضابطَين، وأن تلك الوقائع وصل صداها إلى القصر. وفي الوقت نفسه يطرح إطلاقُ سراحنا مشكلةً: سيكون من الصعب عليهم، بعد كل ما عانيناه من سوء المعاملة، أن يفرضوا علينا الصمتَ وأن يمنعونا كلَّ المنع من أن نحكيَ كيف يعامِلُ جيشُ صاحب الجلالة شبابَ البلد. يُقال إن الكومندان اعبابو تلقّى أوامرَ جدّ دقيقة لإعداد خروجنا من الحبس: تجويد الطعام، إيقاف المناورات المتكررة والخطيرة، منح الرخص، الخلاصة يسعون إلى معاملتنا بطريقة جديدة قصد حملنا على نسيان ما عانيناه.

برنامجٌ طموحٌ. يوزِّعُ علينا عَقّا ألعابَ ورق وعلبَ سجائر «تروبْ»؛ يأمر بتغيير الأغطية ويطلب منّا ألا نعود إلى حلق رؤوسنا. لهجتُهُ معسولة، زائفة تماماً ومنافقة.

تُثيرُ لدينا هذه التدابيرُ الجديدةُ نقاشاتٍ متوتِّرة: يُخبرنا «السياسيون»، الذين يستدعيهم اعبابو مراراً، أنه يقول إن كلَّ هذا الأمر إنما فُرِضَ عليه من لدن بعض الضباط السامين في الجيش وإنه على كل حال قد عَلَّمَنا أشياء ستُفيدنا يوماً ما. يؤمنُ بأهمية «الخدمة العسكرية»

وأكَّد أن الأمر لا يتعلق بعقاب بل بخدمة عسكرية قاسية شيئاً ما، وأنه هو نفسه قد مرَّ ممّا هو أشد قسوة إبّانَ تكوينه ضابطاً...

فجأة، بداية سبتمبر، انقلاب الوضع من جديد. تُستردُّ ألعابُ الورق، يعود الطعامُ غير كافٍ وناقص، يفرض عَقّا من جديد الجريَ وتصبح لهجتُهُ أشد قسوة وتهديداً.

يسقط الثلج فوق أهرمومو. نشعر ببرد قارس. مساكن الضباط مُدفأة. يؤكد لنا ذلك شخصٌ من صفرو: قضى الليلة عند الليوتنان ل. الذي يعشق الذكور. تمكّن من أن يستدرجه في الكلام وهو يُضاجعه. يبدو أنَّ تحريرنا صار وشيكاً. بعض كبار الضبّاط في القيادة غاضبون من استغلال القوات المسلحة الملكية في ابتزازاتٍ وتصفيات حسابات سياسية. ويبدو أن أوامر قد تكون صدرت بإطلاق سراح الجميع. لكن الكومندان غير موافق. يُمدِّدُ الأمرَ ويُطيل معاناتنا في درجات حرارة تحت الصفر. كل يومٍ، يُستدعى واحدٌ منّا، يُلقِّنُهُ درساً في الأخلاق ويُنذرُهُ إنْ هو تكلَّم بعد خروجه، أنه سيعيدُهُ ليسومَهُ أشدَّ العذاب. ثم يقدِّمُ له رسالة ليوقِّعها يعترف فيها أنه قضى خدمتَهُ العسكرية في ظروف جيدة، ويشكر القوات

المسلحة الملكية على حسن استقبالها ومعاملتها. . .

نُنظِّمُ اجتماعاً سرّياً لرفض توقيع تلك القمامة. نُقصي الصفريوي عشيق الليوتنان. لن نغامر بأن يعترف لليوتنان فوق الوسادة. يسود اتفاقٌ واحد: لن نُوَقِّعَ شيئاً.

نصمدُ جيِّداً. لا توقيع. يتراجع الكومندان. وصلت الأوامرُ من الرباط بالإسراع في إطلاق سراحنا. يكبحُ الأمرَ وُسْعه، يُطلقُ من أربعة إلى ستة معاقَبين في الأسبوع. التهديدات شفهية. فحصٌ طبّيٌّ قبل مغادرة المدرسة. لسنا مرضى لكن الحالة العامة ليست بخير. أُصِبنا في معنوياتنا تحديداً. نخشى الفِخاخ. لا ثقة في هؤلاء الأجلاف. لا نعلم كيف ينتقي اعبابو وعَقّا من يطلقون سراحَهم. من دون أيِّ منطق، ولا معيار. ننتظر. أُدرِكُ أنَّ المِحَنَ لم تخلق أواصرَ، أو صداقاتٍ. يستحمل بعضُنا بعضاً، غير أننا لا نتواعد على اللقاء في الحياة المدنية. يبدو أن الأمر طبيعيّ. أن نلتقي، لماذا؟ لنتذاكر أيام الحزن، والتعب، والبؤس الطويلة؟ يستمرُّ توتُّرٌ بيننا بلا سبب. ألوذُ بالصمت، لا أشارِكُ في النقاشات الساخنة، لا تنفع في شيء. أخافُ أن يحتفظوا بنا؛ كل شيء ممكن. في الليل أرى كوابيس يزداد وضوحُها يوماً عن يوم: سجنٌ مؤبدٌ، خوفٌ، صراخ، تحكّمٌ، جنون. . . محاصَرٌ بالفئران، أمقتُ تلك الحيوانات، لديَّ حساسيةٌ

من مجرد رؤيتها. الفئران والخلدان هذا السجن بيتُها، وأنا غريبٌ يُزعجها، بعضُها يعضّني، بعضها الآخر يلحس وجهي، أصرخ، أستنجد، لا يأتي أحد، لم يعد لي صوت، لا يخرج صوتٌ من حنجرتي، ترقص الفئران وتضحك، تدور حولي أنا الذي صرتُ فريستها الجديدة، أشعر بالإرهاق، لم أعد أحتمل، أتركها تفترسني وأموت في نومي. أصيحُ وأوقِظُ رفاقي الثلاثة. كل واحد رأى مثل هذا الكابوس. عادة، لا نتحدث عنها، ربما لكي لا تتحقق. لا ننام على الرغم من التعب. يَنْخُرُنا من الداخل ما يبدو أنَّ مصيرنا قد آلَ إليه. كيف سينتهي هذا الحبسُ المُقَنَّعُ بالخدمة العسكرية؟ الخروج، أجل، لكن متى وبأي حال؟ لديَّ حدسٌ سيّئ. ربما لن تستطيع الشاحنةُ التي ستنقلنا إلى المدينة التوقفَ وستنتهي في هاوية. حادثة. سيقولون لآبائنا: «إنها إرادة الله!». أحاولُ أن أنام من جديد ونسيان فرضية الشاحنة المجنونة. أنجحُ في النوم وأنا أفكِّر بقوة في جدتي لالّة مليكة التي أحبُّها بحنان.

في الصباح، أنظر إلى نفسي في المرآة: أنا شاحب، نحيف، عيناي باهتتان؛ بحاجة إلى الهواء، بحاجة إلى حمّام ساخن، بحاجة إلى شرب قهوة جيدة والخروج

للتجول. أشعر أني مريض، يحدث لي انهيارٌ عصبيٌّ، يتحدّث أحدُهم عن الصَّرَع، أُنقَلُ إلى المستوصف. لم يحضر الطبيب بعد. يقدِّمون لي قهوة ساخنة ويمدُّونني تحت غطاء تفوح منه النفثالين. يدقُّ قلبي بقوة كبيرة. يقول لي الطبيبُ: «يجب أن تُعادَ إلى بيتكم، هذا هو الدواء الوحيد». هذه المرة، أُصَدِّقُ. أعرفُ أني سأغادرُ هذا المكان اللعين، أعرفُ أني إن لم أُغادر سأجعل الأسوار تتراجع. حدسٌ بهذه القوة لا يمكن أن يكذب. أشمُّ رائحةَ تلك الكُريات البيضاء التي تطردُ البراغيث والسُّوسَ. تلك آخر رائحة كريهة سأحملها معي من ذلك السجن. أنا قويٌّ، لم أعد خائفاً، أعلمُ أننا انتصرنا، أرادوا أن يكسرونا، أخرجُ من هنا وأنا على يقين أنهم خسّيسون، نفايات هذا الجيش الذي تسود فيه العنصرية الصريحةُ بين أبناء الجنوب، الأمازيغ، وأبناء الشمال، الريفيين، بين أهل المدن وأهل البادية، بين الذين يعرفون القراءة والكتابة، والذين يهذرون بغضب. أخلعُ ملابسي العسكرية. أستلِمُ حقيبةً تحوي قميصي الأبيض وسروالي الرمادي. إنها وسخة. لا يهمّ. بعد تسعة عشر شهراً، صارت أكبر مني. أرتديها. فقدتُ حوالي عشرة كيلو. أنتظر أوراقي. في الإدارة، أجد القبطان عليوة، ذاك الذي مزَّقَ شهادة إعفائي الطبية. لم يتغيّر، ابتسامة مُفتَعَلة،

النظرةُ بلا روح، لا مبالاة أهل الشمال. يريد أن يقول بعض الكلمات، لا أُنصِتُ إليه. كومة من الأوراق. أختامٌ، توقيعاتٌ، تعليقاتٌ. . . عند خروجي يحدجني بنظره واضعاً سبّابته على فمه. ولا كلمة! أجل، صمت، لن نشيَ بكم، أيها الأوغاد، لا، سنرسمُ لمقامنا بينكم صورةً ملائكية، سيسارعُ الشبابُ للانخراط في جيش يعاقبُ بدل أن يُربّيَ، يُخيفُ بدل أن يدفع إلى استكشاف آفاق مختلفة، جيش يُجنَّدُ فيه المرضى النفسيون عوض أن يُرسَلوا إلى مدينة سَلا ليُعالَجوا عند الدكتور بنعبود، طبيب نفسيّ رفيع، وفيلسوف، إنساني.

في اليوم الموالي بعد القهوة، يُشارُ عليَّ أن أتوجَّهَ نحو باب الخروج. عَقّا ها هنا، يُصفِّر. زكي والعربي، شخصان من طنجة، اختيرا للخروج معي. لا نزال خائفين. لا نجرؤ على التصديق. ألقي نظرة أخيرة على عَقّا. نُسرعُ. في لحظة تجاوزنا البوابة، يقول لنا عَقّا بابتسامة غريبة:

«إلى لقاء قريب!».

لا نردُّ. غير أننا نقول في داخلنا أجل، هو ذاك، إلى لقاء قريب أيها الوغد، سنلتقي في ساحة محكمة أمام قضاة نزهاء، رجال سيطبِّقون القانون بكل استقامة، رجال

يُفزعهم هذا النظامُ الذي يُعذِّبُ، يُغَيِّبُ معارضيه أو يَركُنُهُم في معسكر يقودُهُ جلادون متوحّشون ومنحرفون. يدنو مني زكي ويهمس لي كأننا لا نزالُ في المعسكر يتنصَّتون علينا: «أتعتقدُ أن الملك على علمٍ بما صُنِعَ بنا؟».

أُجيبُهُ من دون أن أهمسَ، الأمر الذي يجعله يقوم بحركات تليقُ بمصابٍ بالبارانويا:

«الملك؟ لا يأبهُ لنا، بل لا يعلم لا بوجودنا ولا بعذابنا».

ننتظر سيارة أجرة. نعُدُّ ما معنا من مالٍ؛ غير كافٍ للوصول إلى طنجة، التي تبعد عن المعسكر بأكثر من ثماني ساعات. السيارة مرسيديس قديمة صفراء قد تكون اشتغلت سيارةَ أجرة في فترة الحرب العالمية الثانية. ينظر إلينا السائقُ، مشدوهاً، كأنه وجد نفسه أمام كائنات فضائية.

«من أين خرجتم؟».

يقول له العربي: «من الجيش». يضيف زكي: «كنّا في عطلة عند عَقّا».

نُفاوضُهُ في الثمن. نُقدِّمُ له جزءاً ونَعِدُهُ باستلام البقيّة عند وصولنا إلى الدار.

ننطلقُ. زكي في الأمام، العربي وأنا في الخلف.

يدخّن السائق. يزعجني ذلك لكني لا أجرؤ على الكلام. أرى المناظر تتعاقب فأقول لنفسي لا شيء تغيَّرَ. العربي، بلا مبالاته المعتادة، يغيبُ في نوم عميق ويشخر. يحادثُ زكي السائقَ ليمنعه من النوم. أنا، أستغرق في أحلام يقظة من دون أن أفلح في النوم. تَسكنُني صورٌ متنافرة. لا أفكر في شيء. أستسلِمُ للهَدهدة كأني طالعٌ من تعب كبير.

في فاس، نتوقف لتناول قهوة. زكي من يدفع الثمن. قهوة حقيقية، نسيتُ مذاقها. يأكل السائق سندويتشاً كبيراً ويشرب الكوكا. أتمشّى خطوات لأتأكد من أنني حرٌّ حقيقة. أرفع ذراعيّ، أقفزُ، أفعلُ أيَّ شيء، أعدو وأرجع إلى سيارة الأجرة. لا بدَّ أن الناس يحسبونني مجنوناً. لقد كنتُ محظوظاً أني لم أَصِرْ كذلك. أنام هذه المرة وأستيقظ في مدينة العرائش. الوقتُ ليلٌ. لا أحد في الشوارع. أشعرُ بحضور البحر. أتنفسُ بعمقٍ وأقول لنفسي، ها إن البيت لم يعد بعيداً، لم تتبقَّ سوى ساعتَين أو ثلاث.

في الخارج

في 28 يناير 1968، أَصِلُ إلى بيتنا مساءً. لم يُخبَر والدايَ بالأمر. أنا أقف أمام البيت. لا يزال الضوء مشتعلاً. السائق ينتظر. أدق الجرس. يفتح أبي الباب بعد أن سأل: «من الطارق؟». أسقطُ بين ذراعيه؛ نبكي كلانا. تهرعُ أمي وتُطلِقُ زغاريد توقِظُ الحيَّ. يُقبِّلُ أبي السائقَ ويدعوه إلى الدخول. أمنحه مئتي درهم. الساعة الواحدة صباحاً. تستيقظ رحمة، خادمة البيت. تقول لي: «سأعِدُّ لك الطعام». لستُ جائعاً، أو بالأحرى، لا أعرف ما الذي أشتهيه. أنا هنا ولستُ هنا. إحساس غريب. يتأرجح العالمُ ولا أعلمُ أين أُرسي. تلاحظ أمي مدى هزالي. أعترف أن الأمر لا يهمني. أبتلع لقمتين من الدجاج بالزيتون وأشعر بالتعب يدهمني. أنام فوق أرائك غرفة الطعام. يحملني أبي، مثلما كان يفعل وأنا صغير، إلى غرفتي ويغطيني وأسمعه يدعو الله. أمي قلقة، لا

تدري ما تفعل، تمسح دموعها وتقول: «أولاد الحرام، أَتْلَفُوا ابني». يتعذَّر عليَّ النومُ. الفراش الوثيرُ لا يناسبني. تخلقُ لدي رفاهيةُ بيتنا نوعاً من الضيق، والرفض. أنام فوق البساط. أحسُّ بالأرض الصلبة وأتذكر الأحجار التي كانت تحفر ظهري. أتقلَّبُ. حملتُ معي من تلك المحنة صديقاً جديداً: السُّهاد. لا أزال أعاني منه منذ تلك الفترة. أظن أني جرّبتُ كل شيء لاستعادة نوم هنيء وعميق. لكن لا شيء ينفع، أصبح النومُ أمراً نادراً، بل مستحيلاً. دَمَّر الحبسُ نومي وطريقتي في الأكل. لا آكُلُ، ألتهمُ. أشعر بالألم في بطني. لا أستطيع حتى أن أتذوَّقَ أطباق أمي اللذيذة. لن أطلب منها، بالطبع، أن تطهو بشحم الجمل وأن تترك الخبز ييبس لأيام. التأقلُمُ معركةٌ جديدة. يتطلّبُ الوقتَ والصبر.

أخيراً، بعد أن أكلت سريعاً، أستحمُّ، أسترخي، أرتدي ملابس نظيفة. أستعيد نفسي شيئاً فشيئاً قبل أن أتمكن من الحكي. تهمسُ رحمة في أذني أن خطيبتي السابقة غادرت المدينة، رحلتْ مع مسيحي. لا يهمُّ. لم أعد أفكر فيها. أنا في حاجة إلى أن أَبْنِيَ ذاتي من جديد. تصل الأسرةُ جميعُها. أخي الأكبر، الذي كان قد رافقني، حاضرٌ، والموجودُ في غرونوبل يطلبني في

الهاتف ويعترف لي أنه كان خائفاً عليّ. حضرت شقيقتي كذلك، هناك زوجها، ابنتها الكبرى، عمّتي، عمّايَ، أولادهما، جيران، أصدقاء أبي، ابن عمي المتمرد، الذي سُجِنَ لأنه قال إن الفساد في هذا البلد يبدأ من القمة. ثلاث سنوات من السجن لإهانة صاحب الجلالة. لم يَتلفّظ باسمه، لكنه مع ذلك حُكِمَ عليه. حفلٌ. أنا منهكٌ، حزينٌ بعض الشيء. أصعد إلى السطح وأنظر إلى البحر. الجو جميل. المضيق هادئ. الضفة الإسبانية تُرى بوضوح. أفكِّر في المناضلين المساجين عند فرانكو. هناك أيضاً يسود الاستبداد والقمع. أقضي وقتاً طويلاً أستمتع بالشمس وأتخيَّلُ الحياة في الضفة الأخرى. لأول مرة، أشعر أني قد أُطلِقَ سراحي. لم أعد في ملكهم. لكن هل أنا حرٌّ؟ لن أستطيع حتى أن أحكي عذابنا. أتذكر من جديد الفيلسوف الفرنسي وأتساءل إن كان لا يزال في السجن في بوليفيا. سأعلم، سنتين بعد ذلك، بخروجه. أحسبُ أن تحرّري يعني أن يتحرّر جميع معتقلي الرأي. أرى قارب صيادين، أسمع صوت المحرِّك، وأشعر بالرغبة في أن أكون فوق ذلك المركب. تنادي عليّ أمي، الغذاء جاهز. استيقظَتْ هذا الصباح باكراً لِتطهو كلَّ ما أحبُّهُ. أسئلة، عناقٌ، صيحاتُ فرحٍ. تقول عمّتي، التي لا تخاف شيئاً، بصوت عالٍ: «الآن يجب أن

نجد له زوجة، المسكين، لا بدَّ أنهم جوّعوهُ، سنزوِّجُهُ من بنت عائلة، فتاة ستتشرّفُ بأن تُحِبَّهُ...».

يضحك الجميعُ. أجل، أنا في حاجة إلى امرأة، لكن ليس من أجل الزواج. أطلب بالهاتف صديقاً كان معي في الكلية، يُخبرني بما ينبغي أن أستدركه من دروس. تنقصني شهادةُ إجازتي في الفلسفة. نحن في فبراير. عندي وقت لتقديمها في يوليو.

يُحدِّثني والداي عن مدى صدمتهما من جراء سلوك خطيبتي السابقة. شَعرا بالخجل. أُطمئنُهما. لا يهمُّ، لم أعد مرتبطاً بها. يصعب الحديث معهما عن هذا الموضوع الأليم. أتألّمُ وأحاولُ ألاّ أبدِيَ ذلك لهما. ما الفائدة من أن أشرح لهما أني أحبُّ تلك الفتاة ذات الجمال الفاضح؟ أمي تتداوى من السُّكَّري. أبي يسعلُ، وإن كان قد توقف عن التدخين. يحدثني شقيقي عن المرحومة ابنته وعن الحزن الكبير الذي رانَ على الأسرة. تُخبرني رحمة بكل ما حدث منذ رحيلي؛ مات البقّال فجأة، لم يأسف أحد لموته، كان شريراً ووسخاً، يُقالُ إن فأرة عضّتهُ بينما كان نائماً في دكّانه؛ ابنه يقوم مكانَه، طيِّبٌ ويُقرضُ الجميع؛ ابن الجيران في السجن، باعَ الكِيفَ لشرطيٍّ، إنه أبله؛ تحلمُ عمّتُكَ بتزويجك من ابنتها، تعرفها تلك النحيلة التي لا تعثر على زوج؛

إحدى بنات عمك كادت تموت اختناقاً بالغاز، أُنقِذت في آخر لحظة؛ ألقى الملكُ خطاباً ندَّدَ فيه بالفتيات اللواتي يرتدين تنانير بالغة القِصر؛ ذهبت شقيقتُكَ الكبرى إلى مكّة للمرة الثانية؛ عادت وقد شُفيت من كل أمراضها. . . طيب، ارتح الآن!».

أنا في حاجة إلى السينما، حاجة عميقة إلى مشاهدة الصور تتوالى، الوجود داخل قاعة مظلمة، انتظار بداية الفيلم، قبول مشاهدة إشهارات رديئة، الاستماع إلى أنباء الأسبوع التي تقتصر على عرض حياة القصر الملكي. عندما لا يحضر الملك في ريبورتاج، تكون الصور بالأسود والأبيض. وما أن يتعلق الأمر بالأسرة الملكية، حتى تظهر الصور بألوان زاهية. أتجرَّعُ تلك الأنباء التافهة وأفكر في آفا غاردنر وريتشارد بورتون، لأنني هنا من أجل **ليلة الإغوانا** لجون هيوستن. يتأخر عرضُ الفيلم. يفقد الناسُ الصبر. يُخبرنا أحدُهم أن الدرّاج الذي ينقل الأشرطة وقعت له حادثة وأنه في المستشفى، بينما الفيلم في مفوضية الشرطة. صراخٌ، واحتجاج. يصعد شخصٌ آخر فوق الركح ويقول لنا: «أنتم محظوظون! عندنا فيلم كبير نُعوِّضُ به الآخر، يتعلق الأمر بقصة حبٍّ رائعة نالت جائزة السعفة الذهبية في مهرجان كانْ. . .». يسود

الصمتُ في القاعة. ثم يُعلنُ ذلك الشخصُ: رجلٌ وامرأة. يعمُّ الاستياء. اعتدنا في هذه السينما على مشاهدة الأفلام الأميركية فحسب، والآن يفرضون علينا فيلماً فرنسياً لكلود لولوش. مُحبَطٌ لكن مستسلمٌ، لا أحتجُّ، لا أزال تحت تأثير الطاعة العسكرية. ما كنتُ أبداً لأقف في صفٍّ لمشاهدة أحد أفلامه. يبدأ العرض. يمرُّ بائع الليمونادا صائحاً «كوكا جيدور، كوكا جيدور». ينهضُ بعض المشاهدين ويغادرون القاعة. أنا أبقى إلى النهاية على الرغم من أنني أمقتُ كلَّ المَشاهد. ليس لديه ما يقول، ويقوله بتبجّح. ويكتمل قَرَفي بتلك الموسيقى الجارحة.

حقَّقَتْ لي مشاهدةُ الصور وهي تتوالى ما كنتُ أرجوه من تحسّن. في الغد، تتألقُ آفا غاردنر فوق الشاشة. آثارٌ زرقاء فوق ذراعيها. كادت تُشوِّهها حادثةُ الدرّاج. أُعوِّضُ نفسي بمشاهدة الفيلم مرّتين. حصلتُ على حصتي من السينما وليست حصةً عادية. جون هيوستن رجلٌ عظيم.

منذ ذلك اليوم، بالمقابل، أَخصُّ لولوش بنفورٍ مستحكم. هذا ظلمٌ. أعلمُ أن له معجبين. صديقي حميدو، الممثل المغربي الذي بدأ مساره معه، حدّثني كثيراً عنه. لم يُفلح في أن يُغيِّرَ موقفي، غير أننا عندما نحب لا نعرف كذلك لِمَ نحب. لِنَقُلْ إني لن أسامح

لولوش أبداً على تعويضه لجون هيوستن في ذلك اليوم. . .

أرحلُ إلى الرباط لأستأنف دراستي في الفلسفة. إلى جانب الشعر، كانت الفلسفة دعامتي، سَنَدي. مصدر كل معرفة، والإيمان بأن دراستها تسمح بتعزيز كرامة المرء باعتباره كائناً ومواطناً. لم يتغيّر شيء. إنها مدينة لا يتحرك فيها شيء. غير أني، في كلية الآداب، لا أجد رفاقي القدامى. بعضُهُم يُدرِّسُ، وآخرون رحلوا إلى الخارج لتحضير أطروحات. بيد أن مسيو شونو لا يزال هنا، وَدودٌ، مُحمَرُّ الخدود، تبرز العروقُ البنفسجية بفعل الكحول. يعطيني لائحة أعمالٍ لأقرأها، وعند خروجه يقول لي: «كان الأمر قاسياً، أليس كذلك؟ - أجل».

أمرُّ، وأنا متوجِّهٌ إلى الحي الجامعي، أمام ثكنة. أنظر إلى جنديٍّ الحراسة. أسمعُ صيحات «**بالْكُمْ**»، و«**راحة**». أبتسمُ. لا أجد غرفة شاغرة في الحي الجامعي، وأُرسَلُ عند الأب جيلْ الذي يُديرُ «لاسورْسْ»، حيث يُؤَجِّرُ غُرفاً للطلبة. هناك أتعرّفُ إلى فرنسيٍّ، رسام ويائس، يقترضُ مني مالاً ثم يختفي. يقول لي الأب جيلْ إنه رجل مسكين وطيّب، لكنه يعاني من الضياع. يُطلَبُ مني أن أُنشِّطَ الناديَ السينمائيَّ مرةً في الأسبوع. أعرِضُ

الفهد، يعقُبُهُ نقاشٌ حيوي حول النزعة الكلاسيكية عند فيسكونتي. أنا سعيد لأني أشعر أن آلاف الكيلومترات تفصلني عن المعسكر. أحيا من جديد، أفعل أشياء تافهة، أجد متعة في أن أذهب للتنقيب في سوق المتلاشيات ثم أن أشتري فولاً سودانياً مُحمّصاً وآكله وأنا أشرب شاياً بالنعناع. أَصيرُ كسولاً. أتسكَّعُ وأحبُّ ذلك. لكن مع اقتراب الليل أشعر بتنامي إحساس بالخوف ثم بالفزع بداخلي. أنا وحيد، أُطَمئنُ نفسي، أحدِّثُ نفسي بصوت عالٍ لأخفض هذا التوتر. إنه القلَق. ما يميِّزُ هذه الحالة أنها لا تُنذر. تحدثُ، فحسب. لا نعرف لا لِمَ ولا كيف. فأدفعُ بيديَّ دُنُوَّ الليل. أنظرُ إلى السماء وأطلبُ النور. تهوي بعضُ النجوم ويَستمرُّ بعضُها في اللمعان. يَستحوذُ عليَّ المعسكرُ وأشباحُه. أرى من جديد الجنديَّ المسكين الذي ماتَ مدفوناً حيّاً. أرى كذلك الوجه القاسي، ونظرة لاجودانْ عَقّا الوحشية. كل ذلك يتراكم في رأسي ويزيد من صُداع الشقيقة. أستمرُّ في عَدِّ الأيام والليالي: 564 يوماً بليالٍ ليست لياليَ حقيقيَّةً من فرط قِصَرِ بعضها. كنّا نَحْنُ الزّمن وكان علينا أن نُصاحبه إلى أن تُغيِّرَ السماءُ نورَها. أُطلِقَ سراحي لكنني لستُ حُرّاً. المعسكر شديدُ الوطأة. أَحْمِلُهُ فوق كاهلي. قَصَمَ ظهري وأَنْهَكَهُ. يَسكُنني، بشتائه الشاق وصيفه الخانق.

يجب أن أغادره، أن أتخلَّصَ منه. يحفر السهادُ أخدوداً في جسدي الموجَع. يحدث هذا كلُّهُ في صمت. المهمُّ ألا أتحدَّثَ عن ذلك، ألا أشتكي. لن يزيد الوضعَ إلا خطورة. ثم هناك رائحة يصعب وصفُها، تحديدُها. تغمرني بين الفينة والأخرى. رائحة الحاجب، شيء رطبٌ ودُهنيٌّ، لَزِجٌ. أُغلِقُ أنفي وأنتظر فواتَها. مَنَحَتْ أمي ملابسي السابقة لابن الجيران. لم يعد شيءٌ منها يناسبني لشدّة ما نحفتُ.

رواية جيمس جويس موجودة معي. أصبحتْ وسخةً وتفوح منها رائحةُ الحبس، من كثرة ما حملتُها معي حيثما ذهبتُ. عندما أفتحها لا أُفلِحُ في أن أتجاوز صفحة أو صفحتين. لا أقرأ، بل أتذكّر. ورائحة تلك الذكريات كريهة. عفواً، سيدي جويس، لكنَّ تُحفتَكَ الأدبية لطَّخَتْها مِحَنٌ لا تَتَصَوَّرُها. أُقحِمَتْ في أمر همجيّ. لَوَّثَها سياقٌ حزينٌ ومُقرِفٌ. غير أن وجودها ساعدني، منحني أملاً وأفكاراً. تأثّرتُ بجرأتك في الإبداع. كنتُ أحلم أن أحقِّقَ يوماً ما شيئاً قد يقاربُ تلك الجرأةَ، عربونَ الحرية والانتصار على خسّة العالم وأَلَمِه.

أقوم بزيارة لِعَبْدِلْ، أحد أساتذتي القدامى. أسلِّمُهُ

الصفحات القليلة التي كتبتُها في فترة الحبس. يقرأ، وهو يسحب النَّفَس من غليونه المنطفئ، ويهمسُ: «هذا جيد، هذا قوي...». يقترح عليَّ إرسالها إلى أحد أصدقائه، عبد اللطيف اللعبي، الذي أنشأ حديثاً مجلةً شعرية، **أنفاس**.

غيّر الزمنُ من لونه وكثافته. أَنْغَمِرُ في عديد من النصوص الصعبة وأعملُ بلا تراخٍ. يجد بعضُها في داخلي صدى مخصوصاً. أقرأ نيتشه. يصبح **هكذا تكلم زرادشت** كتابيَ الأثير. أقرأه كأنه رواية. أُسجِّلُ ملاحظات. ثم أهجُمُ على **العِلم المرِح**. لستُ لا أصمَّ ولا منبهراً، بل سعيداً لِما أجد فيه من تعزيز لأفكاري المُتَلَعْثِمَة. أحبُّ حديثَ الفيلسوف عن «دين الرحمة» و«دين الرفاهية».

ليس في وسعنا أن نفعل، في كل حال، سوى أمرٍ واحد: أن نَقبَلَ الموتَ وألا نُهمِلَ مباهجَ الحياة مع الحرص على ألا نُخجِلَ أبداً إنساناً آخر، ألاّ نُهينَ الذكاءَ والحضورَ في العالم. أن نُكسِبَ ذاتَنا من الكثافة ما يحمينا من الضياع في ضجيج العصر وفوضاه. يستبدُّ بي هاجسُ صورة الساعة الرملية الأبدية ويُفسِّرُ امتناعي عن النوم. أصابتني طيورُ العصر القذرة تلك ببرازها. وأحتفظُ بعقلي يقظاً ومستعدّاً للتلقي، والتعلّم، لأنني، مثلما يقول

نيتشه: «نَصيرُ شفّافين من جديد». ويقول زرادشت: «إنما تقودُ العالمَ أفكارٌ أتَتْ على قوائم الحَمام». في تلك الفترة اكتشفتُ سبينوزا وتبنّيتُ إحدى أفكاره: «كل كائن ينزع إلى المثابرة في كينونته». إنها شعاري، فكرةٌ وصلت إليَّ على قوائم الحمام. لا أحد يتغيّرُ، وإن بُدّلت المتغيّراتُ، ليس هذا فحسب، بل إن الجميع يتمسكون بما يوقنون به إلى الموت.

كان يمكن أن أغادرَ المعسكرَ وقد تغيّرتُ، واكتسبتُ قسوةً، وصرتُ ميّالاً إلى القوة بل إلى العنف، غير أني خرجتُ مثلما دخلتُ، مفعماً بالأوهام والحنان تجاه الإنسانية. أعلمُ أني مخطئ. لكنني ما كنتُ لأكتبَ أبداً لولا تلك المحنة وذلك الظلم.

في يونيو 1968، حصلتُ على إجازتي في الفلسفة. في يوليو، أتلقى تعييني: أستاذ بتطوان، مدينة معروفة بكونها شديدةَ المحافظَة وقليلةَ الترحاب.

تنشر أنفاس قصائدي. تغمرني سعادةٌ عظيمة. يراسلني بعضُ القراء. أُحَلِّقُ في الملكوت. يحدّثني تلاميذي عنها. ثم يقول لي أحدُهم: «إذاً، متى موعد القصيدة القادمة؟». لا أجيبُ وأقول لنفسي، يجب الاستمرار... في تطوان، مثلما هو الأمر في باقي

البلاد، لم يسمع أحدٌ عن معسكر الجيش. عندما أُسألُ عن غيابي، أجيبُ: «كنتُ في عطلة في أهرمومو». يُردِّدُ الناسُ الاسمَ مُشوَّهاً من دون أن يعرفوا إن كان بلداً أم قرية.

5 يوليو 1971

بعد ثلاثة أعوام، أواخر مايو، أتلقى استدعاء بتوقيع الكومندان اعبابو لأحضرَ في فاتح أغسطس إلى معسكر الحاجب. أُهاتِفُ رفاقي القدامى؛ توصلوا بدورهم بالاستدعاء. لا رغبة لي في تكرار الأمر. أفكر في اختيار المنفى، في الهروب. والدايَ يتفقان معي في الرأي. أنا أستاذ الفلسفة في ثانوية محمد الخامس بالدار البيضاء. انصرمت السنة الدراسية بسرعة. كانت الإضراباتُ، واعتقالاتُ تلاميذ الثانوي، والقمعُ المُعَمَّمُ قد دفعتني من قبل ذلك إلى القيام باتصالات للمغادرة إلى فرنسا. من دون منحة، ولا مساعدة. تتعنَّتُ الوزارةُ في موقفها. أعمل موظَّفاً بعقد فإن رغبتُ في المغادرة، يتوجّبُ عليَّ أن أُعيد إلى الدولة ما حصلتُ عليه من منحة وأنا أُحضِّرُ إجازتي في الفلسفة. ذاك لا يهمّ. يجب أن أغادر. ينصحني عَبدِلْ أن أطلب سنة بيضاء بغير راتب. في الوزارة أقصدُ رجلاً كبيراً في السن يُفهمني أنه يعرف

المِحَنَ التي مررتُ بها. يقول لي: «استثناءً أوافقُ على منحكَ ترخيصاً إداريّاً يمكنك تجديده مدَّةَ ثلاثة أعوام، بتقديمك لِما يُثبِتُ أنك تدرس؛ وإلا، فسيتعيّنُ عليك أن تُعيد للدولة المغربية ما أنفَقَتْهُ على دراستك». أتقاضى، باعتباري أستاذاً، مبلغَ 905 دراهم في الشهر. ما يكفي للسكن والطعام فحسب. لا سبيل إلى الادّخار.

حُسِمَ الأمرُ. أشتري براتبي الأخير بطاقة الطائرة إلى باريس. السفرُ مقرَّرٌ لمنتصف يوليو 1971. سيتأخر سفري مدة شهرين، بسبب ما سَيَلي من أحداث. اقترح عليَّ محمد الوسيني، الذي يغادر بدوره، أن يأويني بضعة أيام في بيت عمّته التي تقيمُ في شارنتون.

في 5 يونيو، أنا في فاس صحبة معاقَبَين اثنين لإجراء الفحص الطبي بحكم استدعائنا. من الأفضل أن أُنجِزَ الأمورَ وفق المطلوب، وإن كنتُ قد اتخذتُ قراري بألّا أعود إلى المعسكر. لا أتحدث عن ذلك. حوالي منتصف النهار، نَهُمُّ بالدخول إلى مقهى-حانة لارونيسانْسْ في وسط مركز المدينة الجديدة بفاس. وإذا بنا نجد أنفسنا وجهاً لوجه إزاء الكومندان اعبابو. صدمة. يعقبها ردُّ فعل تلقائي: نقف في وضع انتباه! يقول لنا اعبابو إننا لسنا في

الجيش. صاحبي العربي، المتفائل، الرجل الدائم الابتسام، يطرح عليه السؤال بشكل مباشر: «سيدي الكومندان، نحن في فاس لنُجريَ الفحص الطبي من أجل استدعاء فاتح أغسطس المقبل. لماذا هذا الاستدعاء، سيدي الكومندان؟».

يقول لنا اعبابو، الذي يرتدي بذلة رياضية، هذه الجملة التي لا أزال أسمعها والتي لن أنساها أبداً: «أحتفظ لكم بمفاجأة، مفاجأة كبيرة». يريد العربي، وقد استبدّت به الإثارةُ والقلق، أن يعرف حقيقة الأمر. يقول له الكومندان: «سترى، أقول لك مفاجأة». زكي لا يضحك. إنه على يقين أن الجيش يريد أن يستردَّنا كي يُجَنِّدَنا بشكل نهائي. أجتهد في أن أظلَّ بعيداً عن كل ذلك. أقول لنفسي، في جميع الأحوال، في فاتح أغسطس سأكون في فرنسا.

يُربِّتُ الكومندان اعبابو على أكتافنا بودٍّ ثم ينصرف وهو يردد كلمة: «مفاجأة». نظل مذهولين، مضطربين، الخوف ملء أحشائنا. كنا في موقع يؤهِّلنا لنعرف ما يمكن أن يُقدِمَ على فعله ذلك الكومندان الذي لا يملك حسَّ الدعابة. لن تكون مفاجأته سوى محنة جديدة، مصيبة جديدة. ليس من الصنف الذي يمزح، خصوصاً مع مُعاقَبين سابقين. نجلس إلى مائدة ونطلب قضبان لحم.

يضحك العربي بلا توقف. ضحكٌ عصبيّ. يقول: «مجنون هذا الكومندان، يعتقد أننا سنطيعه مثلما في السابق!». يردُّ زكي، بتشاؤمه المعهود: «توصّلنا بورقة رسمية؛ إنها استدعاء إلى الجيش، إذا لم نحضر سنُعتَبَرُ هاربين من الجندية وفي هذه الحال تكون العقوبات رهيبة. أنا، لا أرغبُ في المزاح. إنهم يُفسدون علينا حياتنا». ألقي إليهما: «أتتذكّران الشخصَ الذي كان قد فرَّ من الجندية؟ دُفِنَ حيّاً...».

يتساءل العربي عن ماهية تلك المفاجأة. الحرب مع الجزائر؟ تبّاً، إن كان الأمر كذلك، سيكون الأمر رهيباً. لا رغبة لي في إطلاق النار على الجزائريين، إنهم أشقاء، وأبناء عُمومة، خرجوا لتوِّهم من حرب فظيعة ضدّ فرنسا... تبّاً وتبّاً. لا تزال حربُ الرمال في الذاكرة. ربما يرغب جنرالات الجيش الملكي في أن يُعيدوا الكَرَّةَ ويَقصموا الجزائر وهي لا تزال هشّة.

لم تعد لدينا شهية. ينطلقُ قطار العودة في السابعة عشرة. نحاول أن نتسلى، يغازلُ العربي سائحتَين، فتاتَين اسكندنافيتَين. يقول لنا بالعربية: «سَنَحْتَكُّ بالديمقراطية! معاشرة فتاة وُلِدت بالديمقراطية في دمها، لا بدَّ أن تكون أكثر من لذيذة!». لا رغبة لي في المغازلة. تُقلقُني «المفاجأة».

عند وصولنا إلى طنجة، يذهب العربي صحبة الفتاتين ويقول لي أن ألحق به فيما بعد. يقطُنُ في قصر خَرِبٍ قريبٍ جداً من مسكن والديَّ. نقضي الليلة عنده ونمارسُ الجنس مع الديمقراطية السويدية. أعترفُ أني في الصباح أجد نفسي خفيفاً، سعيداً، متغيِّراً. كانتا قد دخَّنتا قبل ذلك. أنا، أكره هذا. نتبادلُ عناويننا وأنصرف إلى بيتي. لا أُحدِّثُ والديَّ عن «المفاجأة». في الغد، يركبان الباخرة إلى جبل طارق.



المفاجأة

10 يوليو 1971. الساعة الثانية وثماني دقائق بعد الزوال. أربعمئة وألف تلميذ ضابط، مُوَزَّعين على خمس وعشرين شاحنة، يحاصرون الإقامةَ الصيفيةَ للملك الحسن الثاني، قصر الصخيرات، قرب شاطئ البحر على بُعد كيلومتراتٍ من الرباط. يدخل الليوتنان كولونيل مْحَمّد اعبابو من الباب الشمالي. أخوه الأكبر، مُحَمد يدخل من الباب الجنوبي. إنه عيد ميلاد الملك. عمره اثنان وأربعون عاماً. ينظِّمُ حفلاً في الهواء الطلق استدعى له أصدقاءه، وسياسيين، وفنانين، وعسكريين. لباس مريح. موسيقى خفيفة. يحب الملك أحياناً معاكسة البرتوكول. السماء ذات زرقة متميّزة. الجو حار. أُعطيَ الأمرُ بقتل الجميع. مذبحة بالرشّاش. دمٌ في المسبح، فوق الرمل، على موائد الطعام، في كل مكان. يلتجئ الملك إلى المراحيض.

إنه يوم عطلة. نذهب في الصباح رفقة أصدقاء إلى

الرميلات (على بعد خمس كيلومترات من طنجة) للقيام بنزهة. ذكور وإناث. العربي موجود معنا. إنه مَرِحٌ، ويُضحكنا. نأكل سندويشات من عند عبد المالك. ممتازة. نشرب الكوكا. يسير كلُّ شيء على ما يرام. الجو رائع. رياح الشرقي لا تهبُّ. طنجة في أبهى صورها. يمزح العربي حول عودتنا المفترضة إلى الجيش. تقول الفتيات: «سنتبعكم». نضحك، نتعانق. نحن سعداء. وحده زكي مُعَكَّر المزاج. يقول لي العربي: «إنه مشؤوم، سترى، سينتهي بنا الأمرُ في هذا الجيش القذر!». زكي يعاني من عقدة بسبب قِصَرِ قامته وشعره المُجَعّد. يُعوِّضُ ذلك بذكاء كبير وشيء من السخرية. كئيب، كعادته. على العكس من العربي. أنا وسطٌ بين المزاجَين.

حوالي الساعة الثالثة والنصف بعد الزوال، نقرّرُ الرحيل. عندما نرتقي الخليج نصل إلى الرحبة حيث يوجد مقهى تَؤُمُّهُ الأُسرُ. نجده فارغاً. أمر غريب. تريد إحدى الفتيات الذهاب إلى المرحاض. ما أن تلجَ المقهى، حتى تخرج منه وهي تجري: «أقبِلوا بسرعة، أقبِلوا، هناك شخص في التلفزة أصيب بالجنون...». نُسرعُ ونشاهد صحافياً مشهوراً جدّاً، بن ددُّوش، بمظهر شديد الرزانة، يتلو بياناً: **استولى الجيش على الحكم... قُضِيَ على النظام الملكي... جيش الشعب أخذ السلطة...**

الحيطة والحذر... ستُنقلُ إليكم بيانات أخرى... تحرَّر الشعب، الملكية الفاسدة لم تعد موجودة... إنها ثورة الشعب والجيش! كونوا يقظين... ترافق تلاوةَ الإعلان موسيقى عسكرية. يقول أحدُنا: «قُضيَ الأمر، إنها الثورة؛ هيّا بنا بسرعة إلى مركز نقابة العمال؛ لا بدَّ أن العمّال قد نزلوا إلى الشارع...». لم يعد أحد موجوداً في المقهى؛ في الخارج، لا وجود لحافلة أو سيارة أجرة. نشرع في الجري عائدين إلى المدينة. نشير بأيدينا للسيارات. تتوقف سيارة من نوع 4L، إنه أستاذنا السابق في التاريخ، فرنسي؛ ننغمر في السيارة. هو الذي يخبرنا بما يجري: «مجموعة من العسكر قاموا بانقلاب، على رأسهم شخص يُدعى عَبَا... بي أو بُو؛ أطلقوا النار على الجميع؛ لا بدَّ أن الملك قد قُتِل؛ يقال إن هناك مئات القتلى... أمر سيّئ. المغرب قُضِيَ عليه!». نجد صعوبة في تصديقه. ينظر بعضنا إلى بعض، الخوف ملء الأحشاء. أحدهم يُشغِّلُ الراديو. موسيقى عسكرية وتلاوة بيان الجيش. اعبابو! ينفجر العربي ضاحكاً. ضحك عصبي. يحتجُّ زكي ويطالب بالصمت. يقول إنها لحظة تاريخية وإننا جميعاً مهدَّدون بالإعدام رمياً بالرصاص!

اعبابو! طبعاً! الـ«مفاجأة»! المفاجأة الكبرى! كانت

هذه هي إذاً! زكي يموت من الخوف. شاحب الوجه. لا يتكلم. العربي لم يعد يضحك. هو أيضاً مرعوب. كلنا مرعوبون. حنجرتي جافّة. يصيبني الذعرُ وأراني وقد صرتُ جنديّاً في جبهة الجزائر. يقفز خيالي في كل اتجاه ولا أعود أتحكم في شيء. أرغب في التبول. الجميع يرغب في التبول. يوقِفُ الأستاذُ السيارة وها نحن نقضي حاجتنا. يشعر البعض الآخر بمغص في البطن. لا نتكلم. ننتظر الوصول إلى المدينة.

لا أحد في مقرِّ نقابة العمّال. الشوارع مقفرة. نتفرّقُ ويعود كلٌّ واحد إلى بيته. والدايَ جدُّ قلقين. خصوصاً أبي، الذي يعرف ما يمكن أن يفعله العسكر؛ أنا أيضاً، والسبب واضح. أنسحبُ إلى غرفتي من دون أن أتمكن من الهدوء. أنشغل بترتيب الأشياء. أُشغِّلُ الراديو، الإذاعة الوطنية توقّفت عن البثِّ، أبحث عن موجة أجنبية. أقع على راديو فرنسا. أنتظر موعد الأخبار. يحكي مراسِلٌ خاص: «الرباط بين يدي المتمرِّدين، أسمعُ طلقات نارية حول بناية الإذاعة الوطنية التي يعلن منها المتمرِّدون قيام الجمهورية؛ القتلى من بين ضيوف الملك كثيرون؛ يستحيل تحديد عددهم؛ تمكّنَ سفيرُ فرنسا من الهرب؛ سفير بلجيكا مات. غير ممكن معرفة وضع الملك. يقول بيانٌ إنه قد تنازل عن العرش؛ نزل التلاميذ

الضباط من ثكنة أهرمومو، قرية في شمال غرب البلاد؛ قائدهم ليوتنان كولونيل اسمه مْحَمّدْ اعبابو، يساعده معاونٌ يُدعى عَقّا، يتبعه ضبّاط شباب من بينهم شقيق اعبابو؛ قُدِّمت لي أسماء: القبطان شلّاط، القبطان المانوزي، لاجودان مريزق؛ يُقال إن جنرالات متواطئون مع اعبابو، يدور الكلام عن الجنرال المذبوح، مُقرَّبٌ جدّاً من الملك، مدير القصر الملكي، أصبح اليوم قائد ظل المتمردين؛ أما بالنسبة إلى الجنرال أوفقير، يُقال إنه أمسك بزمام قيادة الجيش الملكي، وخرج في طلب اعبابو ورجاله. دلالة اسم «المذبوح» بالعربية تثير الخوف...».

كل تلك الأسماء يتردّد صداها في رأسي، لأنني أستطيع أن أضع وجهاً على كل اسم. إنهم الضبّاط الذين عاقبونا. أولئك أنفسهم الذين أذاقونا تسعة عشر شهراً من العذاب. هؤلاء الضباط أصبحوا قتلة. حالة عَقّا لا تفاجئني. إنهم مجانين برغبتهم في الانقلاب على الملك بواسطة العنف. لن يُفلِتوا، هذا على الأقل ما أقوله لنفسي وما أرجوه. أعرف ما سيصنعون بهذا البلد، إذا ما نجح انقلابهم، ستكون دكتاتوريةً رهيبة ومن دون رحمة. لا يمكن أن يكون اعبابو، العصبيُّ والعنيفُ، ديمقراطيّاً. يتحدّثون عن العدالة والديمقراطية ولكنهم أناس بلا إيمان ولا قانون. أعرفهم. أردِّدُ لنفسي هذه الجملة: «أعرفهم،

أعرفهم». يُكلِّمُني شقيقي من فرنسا. يقول إن الجيش الفرنسي قد يكون مستعدّاً للتدخل من أجل إنقاذ الملك. الأمور ملتبسة. إنقاذ المغرب من انتصار مُحتَمَلٍ للعسكريين العنيفين، والأمّيين، والظمأى للسلطة.

أُصبحُ معنيّاً بالأمر تماماً مثل السلطة الملكية. أتنبّهُ أخيراً إلى أنَّ استدعاءنا لفاتح أغسطس ذو علاقة مباشرة بالانقلاب. لا بدَّ أن اعبابو قد فكّر في تجنيدنا في مغامرته. الأدهى، وهو خوف ذو مفعول رجعي، أنه كان في إمكانه أن يقوم بهذا الانقلاب في الفترة التي كنّا خاضعين لسلطته. 94 طالباً يسارياً، هذا عذرٌ جيّدٌ لدكتاتور المستقبل. نجونا في الوقت المناسب. بل كان الأمر معجزة. لا شيء كان يمنع اعبابو من أن يحتفظ بنا ويجرّنا معه في مغامرة مأساوية. أتساءلُ لِمَ لمْ يفعل ذلك. كان بإمكانه أن يستبيح ما يشاء، ولم يكن لنا من سبيل إلى عصيانه. في جميع الأحوال لم يكن ليُطلعنا على مشروعه. كان سيصنع بنا ما صنعه بالتلاميذ الضبّاط، يخدِّرُنا ويقول لنا إن الملك في خطر وإننا سنذهب لإنقاذه!

أرى من جديد وجه عَقّا القاسي، ورأسَهُ الحليق. أرى من جديد مشية الليوتنان الصارمة، وقد صار القبطان المانوزي؛ أتخيّلُ القبطان شلّاط وهو يذبح ضيوفَ

الملك. أسمع اسم بوالهيمز، اسم عليوة (ذاك الذي مزّق الشهادة الطبية)، يُقال إن هذين الأخيرَين يبحثان عن اعبابو للقبض عليه وتسليمه للملك. قُبِضَ على الجنرال المذبوح وقُتِلَ من لدن عَقّا لأنه أراد أن يُحافظ على حياة الملك وأسرته.

في الليل المتأخر، أسمعُ، وأذناي ملتصقتان بالترانزيستور، صحافيَّ راديو فرنسا يقطع برنامجاً مسرحيّاً ويُعلن: «الملك على قيد الحياة، قدَّمَ لنا التصريح الآتي...». يتحدث الملكُ عن معجزة، عن خيانة صداقة، عن مباركة إلهية، يقول إنه يُفضِّلُ أن يكون ضحيّةَ صداقةٍ على أن يخون صديقاً... يبدو مُطَمئِناً، يتحدث فرنسية مثالية. نعلم أن حوالي مئة من ضيوفه قد قُتلوا. أن شقيقه مولاي عبد الله أصيب بجرح طفيف، وأن ولي العهد سيدي محمد، ذا الثماني سنوات، سليم ومعافى.

استُعيدت الإذاعةُ من المتمردين. يُحكى أن المغني المصري عبد الحليم حافظ، الذي كان بصدد تسجيل أغنية، رفض تلاوة بيان المتمردين. يبدو أنهم هدّدوه لكنه قال إنه فنان أجنبي وليس له أن يتدخل في سياسة بلد صديق. المُلَحِّن المغربي الضرير عبد السلام عامر هو من أُجبِرَ على إعلان سقوط النظام الملكي. قُرِئ عليه البيانُ، حفظه عن ظهر قلب وتلاهُ.

أشعرُ بتحسّن. مع أنني لم أكن في حفل الملك في الهواء الطلق. في الحقيقة أفلتُّ للتوّ بمعجزة من الموت. لو انتصر اعبابو، لم تكن لتساويَ حياتُنا، نحن مُعاقَبي الحسن الثاني، فتيلاً. كان سيجنِّدُنا بالقوة ويُعدِم كلَّ من تجرَّأ على المقاومة. هكذا كان اعبابو. إنما أوكلَ إليه أوفقير مهمّة إصلاح الطلبة المعارضين للنظام لِما عُرِفَ به من سمعة عسكرية عنيدة. أدّى مهمّتَهُ. غير أنه لم يُفلِح في الوصول إلى منتهى غايته: أن يجعل منا متواطئين، متمردين، شهداء.

التتمة تحدث وفق منطق الأشياء: إعدام الجنرالات المتورِّطين في الانقلاب، في بثٍّ تلفزيٍّ مباشر. تُنزَعُ عنهم رُتَبُهم، يُهانون، يُكَبَّلون ثم يُكَدَّسون داخل شاحنة قبل أن يُعدَموا رمياً بالرصاص. الآخرون، التلاميذ الضباط، يُعتقلون جميعُهم. اعبابو قتلَهُ الجنرال بوهالي عند مدخل قيادة الجيش بالرباط. عَقّا لاذَ بالفرار. يُلحَقُ به في ضواحي القنيطرة ويُقتَلُ قِتلةَ الكلاب. تُصَفِّي الملكيةُ حساباتها. وأنا لا أزال أرتعدُ من فكرة أنَّ ذلك المريض النفسانيَّ المُتَعَطِّشَ للسلطة كان يمكن أن يَجُرَّنا إلى تلك المغامرة المجنونة. تُعِدُّ أمي طبقاً كبيراً من الكُسكُس صدقةً للفقراء. تقول لي: «إن الله معنا». الله أو الحظّ، الله أو القدر.

عوقِبتُ، لأنني تظاهرتُ، بهدوء، سلميّاً، من أجل قليل من الديمقراطية. لمدّة شهور، لم أكن سوى رقم تسجيل، الرقم 10366. ذات يوم، استرجعتُ حريّتي، بعد أن كنتُ قد فقدتُ الأمل في ذلك. تمكّنتُ أخيراً، مثلما كنت أحلمُ، من أن أُحبَّ، وأسافرَ، وأكتُبَ وأنشرَ مؤلفاتٍ عديدة. غير أن كتابة **العقاب**، والجرأةَ على الرجوع إلى تلك الحكاية، والعثورَ على كلماتها، تَطَلَّبَ مني ما يناهز الخمسين عاماً.

المحتويات

«عوقِبتُ، لأنني تظاهرتُ، بهدوء، سلمياً، من أجل قليل من الديمقراطية. لمدّة شهور، لم أكن سوى رقم تسجيل، الرقم 10366. ذات يوم، استرجعتُ حريّتي، بعد أن كنتُ قد فقدتُ الأمل في ذلك. تمكّنتُ أخيراً، مثلما كنت أحلمُ، من أن أُحبَّ، وأسافرَ، وأكتُبَ وأنشرَ مؤلفاتٍ عديدة. غير أن كتابة **العقاب**، والجرأةَ على الرجوع إلى تلك الحكاية، والعثورَ على كلماتها، تَطَلَّبَ مني ما يناهز الخمسين عاماً».

بهذه الكلمات يختم الطاهر بنجلّون هذه السيرة الروائية حول تجربة سجنٍ، وإذلال، ومعاناة.

تحكي السيرة قصة أربعة وتسعين طالباً -الطاهر بنجلّون واحدٌ منهم- سُجنوا مدّةَ تسعة عشر شهراً، تحت حكم الحسن الثاني، عقاباً لهم على التظاهر سلمياً في شوارع المدن المغربية الكبيرة في مارس 1965. يجد أولئك الطلبة أنفسهم، بعد أشهر قليلة، مسجونين داخل ثكنات، بدعوى الخدمة العسكرية، تحت نير ضباط تابعين للجنرال أوفقير، مكلَّفين بـ«إعادة تربيتهم»، يسومونهم العذاب، والإذلال، وسوء المعاملة، ويقودونهم إلى مناورات خطرة بذرائع عبثية. ولم ينتهِ عذابهم إلا ببداية التحضير لانقلاب عسكري، انقلاب الصخيرات في 10 يوليو 1971، حيث أُطلق سراحهم من دون أيّ تفسير.

يروي الطاهر بنجلّون تفاصيل تلك الشهور الطويلة التي طبعته وهو في العشرين من عمره، وغذَّت وعيَهُ، وخلقته، سرّاً، كاتباً. ويعود، بعد رائعة **تلك العتمة الباهرة**، بهذه السيرة الروائية المثيرة، ليحكي لنا «بصيغة الحاضر، وبأسلوب واقعي، من دون بهرجة، ومن دون نعوت. يحكي الأشياء كما وقعت في حينها، يوماً بعد يوم، من دون أن نعلم ما سيحدث في الغد».

ISBN 978-9953-68-895-4





الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com